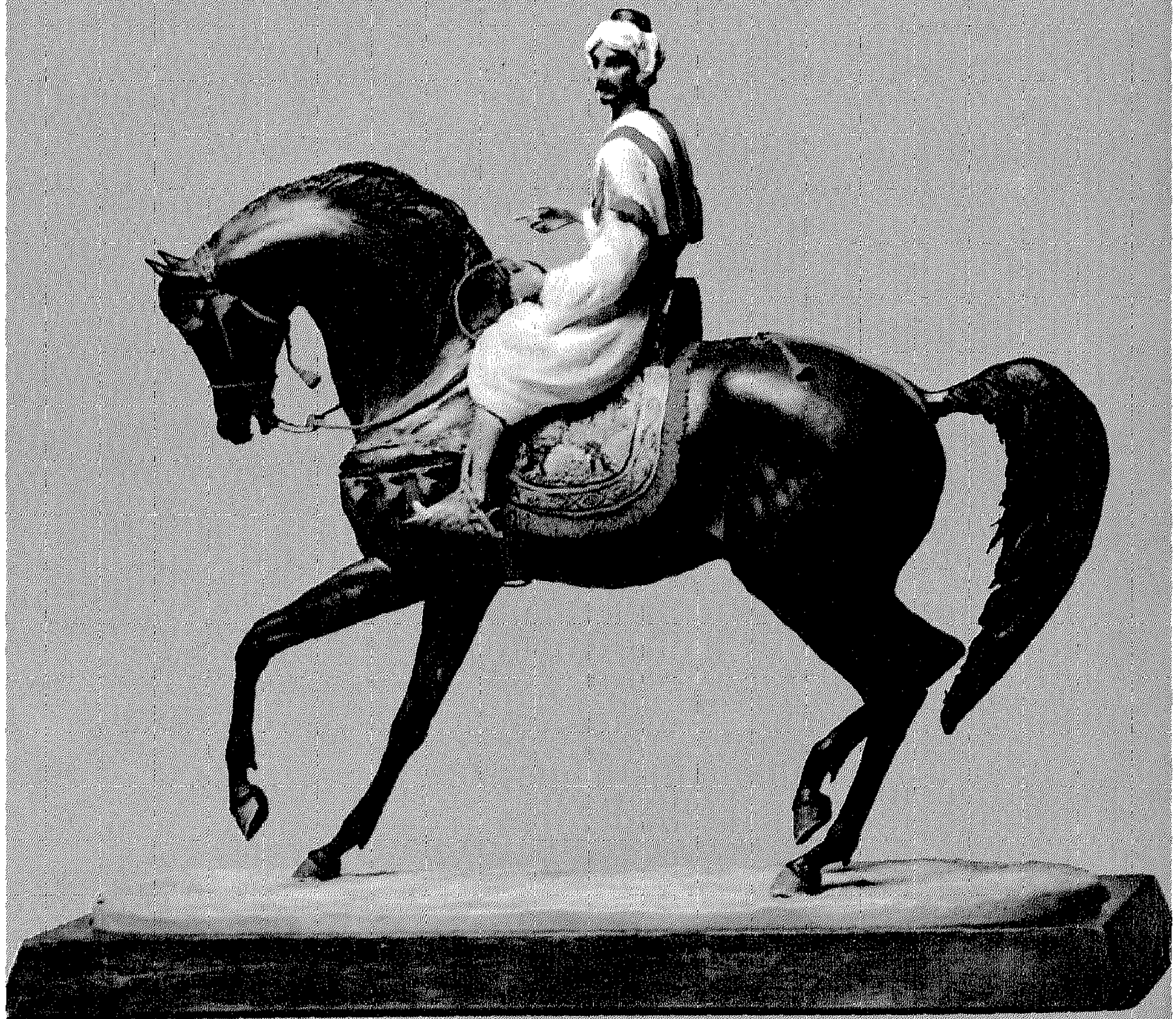
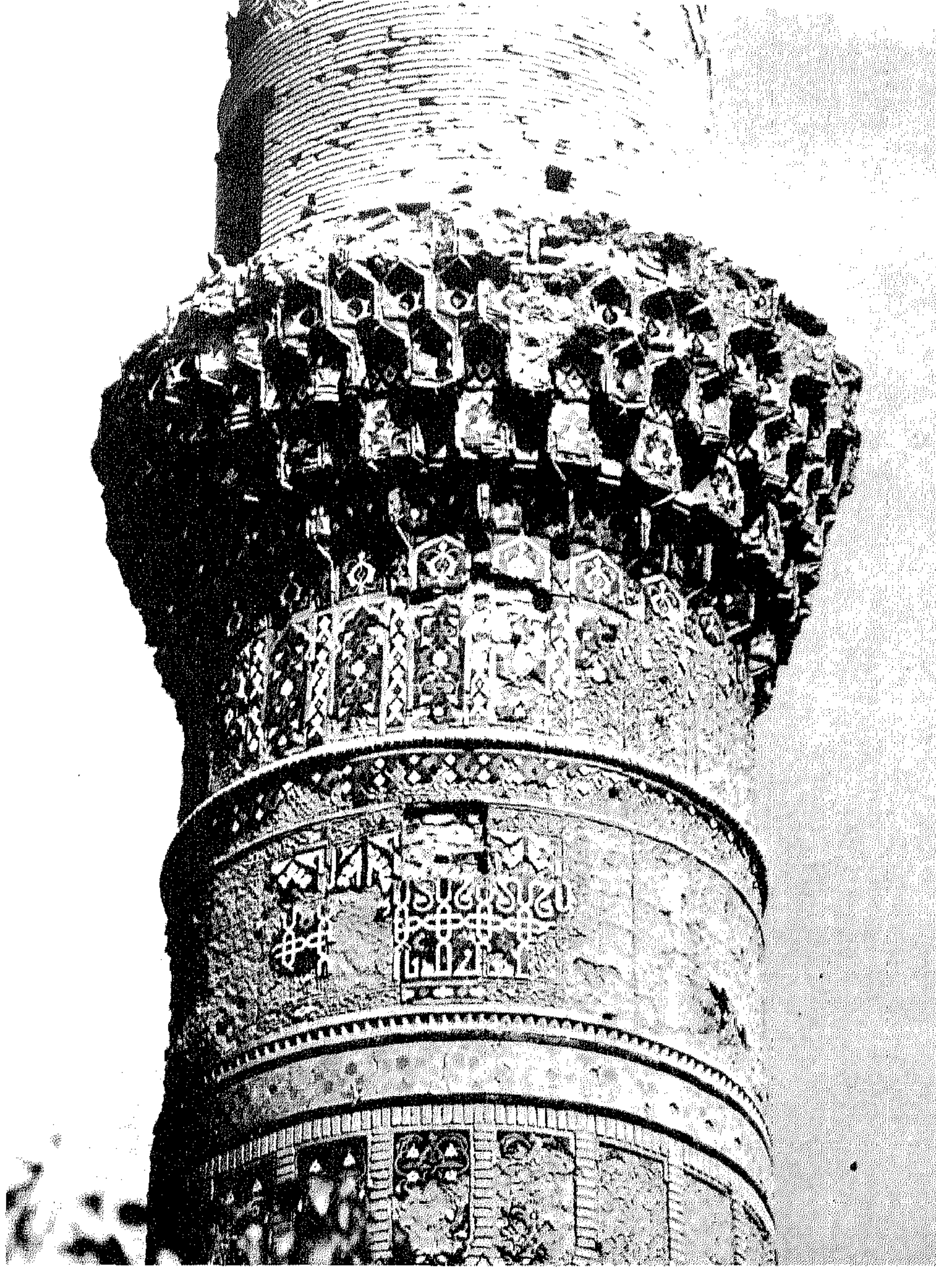
# تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة • العدد ٥٤ • نيسان ١٩٨٣ م . • الموافق رجب ١٤٠٣ هـ .



حيرات ـــ مأذنة جامع مدراسا غاهور في تشاد



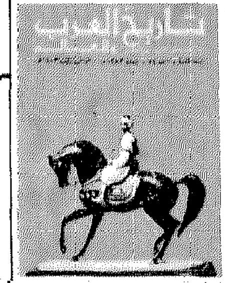
الغلاف الأخير



صورة زجاجية للرازي في جامعة برنستون، تخليدا لما قدمه في علم الطب

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

الغلاف الأول



الغودولفن العربي، لباميلا دو بولاي. الصورة من روزنامة «الحصان العربي» شركة «مدماك» ١٩٨٢م

# تاريخ العرب والعالم

**العدد ٥٤ ــ نيسان ١٩٨٣**

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

**ثمن النسخة**

| البلد | الثمن | البلد | الثمن |
|---|---|---|---|
| لبنان | ٦ ل.ل. | سوريا | ٩ ل.س. |
| العراق | ١ دينار | تونس | ١,٥ دينار |
| السعودية | ١٠ ريال | الكويت | ١ دينار |
| الأردن | ٨٠٠ فلس | الامارات | ١٠ درهم |
| البحرين | ١ دينار | قطر | ١٠ ريال |
| مسقط | ١٠٠٠ بيزة | بريطانيا | ١,٥ جنيه |
| صنعاء | ١٠ ريال | ليبيا | ١ دينار |
| | | مصر | ١ جنيه |

**الاشتراكات**

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٢٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

**HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD**

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

**Vol. 5, No. 54, APRIL 1983**

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»


## في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

# المشروع الإسرائيلي لشق قناة تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الميت

د. محمد المجذوب

نشر اتحاد الحقوقيين العرب دراسة قانونية للدكتور محمد المجذوب عن المشروع الاسرائيلي لربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الميت بواسطة قناة مائية تمتد من منطقة بحرية قريبة من غزة حتى سواحل البحر الميت. والدراسة قد أعدت بناء على طلب من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية لعرضها على مؤتمر (فاس) الأول. وننشر منها المقدمة التاريخية التي تنتهي بطرح السؤال الذي عالجته الدراسة بأسلوب علمي وموضوعي، والذي يتعلق بحدود صلاحيات دولة الاحتلال.



في ٢٤/٨/١٩٨٠، أقرت الحكومة الاسرائيلية مشروع شق القناة التي تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الميت، واعتمدت «الخط الجنوبي» الذي أطلق عليه (خط القطيف ـ مساده) لأنه يبدأ من تل القطيفة الذي يقع على شاطىء البحر المتوسط، جنوبي دير البلح وشمالي خان يونس في قطاع غزة، وينتهي في منطقة مساده بالقرب من البحر الميت، بعد مروره بالنقب الشمالي، جنوبي بئر السبع. وسيبلغ طول القناة نحواً من ١٠٨ كلم. وقدرت تكاليف تنفيذ المشروع بـ ٨٠٠ مليون دولار، حسب الأسعار السائدة في عام ١٩٨٠.

ووصفت الحكومة موافقتها على المشروع بأنها «مبدئية» و «لمقتضيات انتاج الكهرباء ولأغراض أخرى تتعلق بتطوير البلد»[١]. وقبل مرور شهر على الموافقة عين (يتسحاق موداعي)، وزير الطاقة والتجهيزات، اللواء الاحتياط (رحبعام زئيفي) مديرا لمشروع القناة[٢]. وفي ٢٨/٥/١٩٨١، أزاح مناحيم بيغن، رئيس الوزراء، الستار عن لوحة تذكارية وأعلن عن افتتاح المشروع. ومن المؤكد أن الاسراع في عملية التدشين قد تم لتحقيق مكاسب انتخابية[٣]. والبرهان أن التدشين جرى قبل تصديق المجلس القومي للتخطيط على بدء تنفيذ المشروع، وقبل استكمال التخطيط التفصيلي الذي يستغرق اعداده حوالي السنتين[٤].

ومما لا شك فيه أن لتنفيذ هذا المشروع أبعادا سياسية واجتماعية وغايات اقتصادية واستعمارية. فاسرائيل، منذ قيامها، تتبع، عن طريق الاحتلال والتوسع وتكريس الأمر الواقع، سياسة «القضم» التدريجي للأراضي العربية. وقرارها بضم القطاع الشرقي من مدينة القدس واعتبارها عاصمة «أبدية» وقرارها بضم مرتفعات الجولان، ورفضها التخلي عن الضفة والقطاع... خير دليل على وجود هذه النزعة.

وفكرة ربط البحرين (المتوسط والميت) بقناة مائية، تمهيدا لربط البحر الميت بقناة تصل الى خليج العقبة فالبحر الأحمر، فكرة قديمة تعود الى منتصف القرن الماضي وتدخل في صميم السياسة الاستعمارية التي كانت الدول الكبرى تمارسها انذاك.

□ خريطة رقم (١):
**خريطة الخطوط الثلاثة لمشروع قناة البحرين.**

ففي هذه الفترة كان الصراع على أشده بين فرنسا وبريطانيا، وكانت فرنسا قد نجحت في اقناع السلطان العثماني والخديوي المصري بشق قناة السويس وبقدرة مهندسها (فرديناند دوليسبس) على تنفيذ المشروع. وخشيت بريطانيا أن تفقد السيطرة على طريق الهند والشرق الأقصى، فراحت تفكر في مشروع بديل أو مماثل. وفي عام ١٨٥٠، أرسلت الى فلسطين الكابتن (وليام ألن) لدراسة امكان وصل البحر المتوسط بالبحر الميت بواسطة قناة تربط خليج حيفا بوادي الأردن.

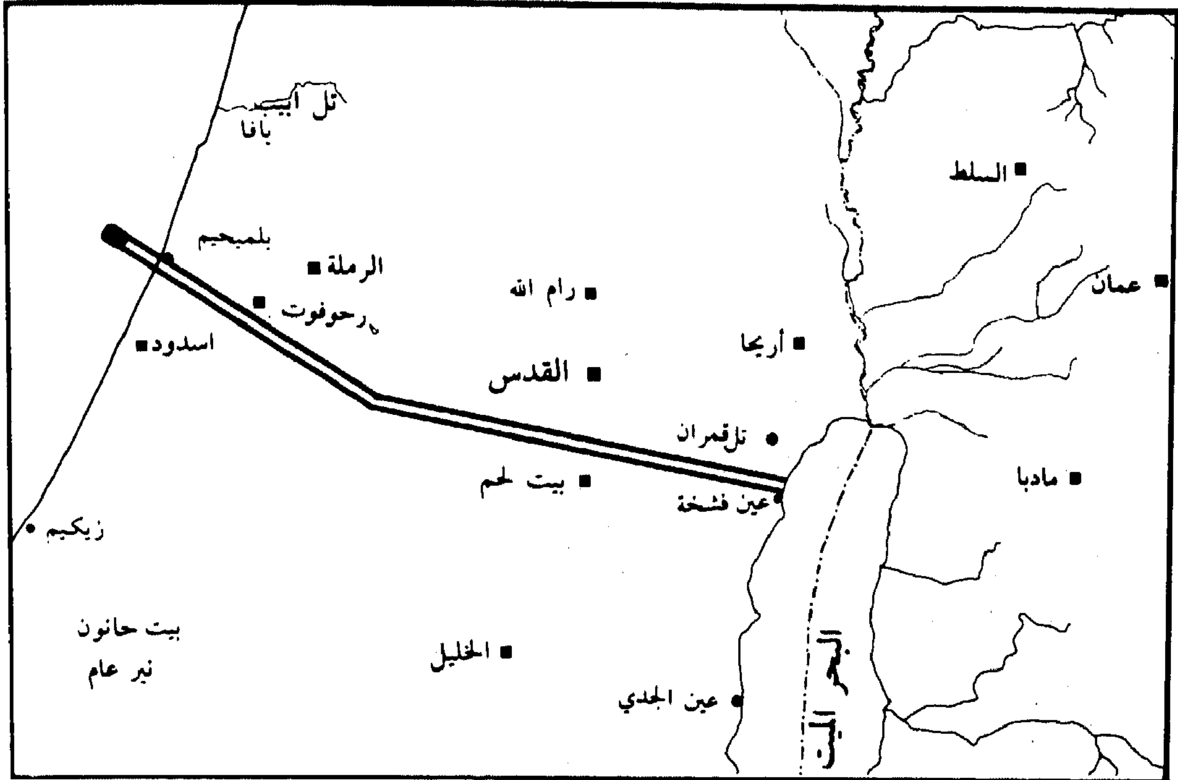
وأنجز الكابتن المهمة وقدم تقريرا الى الحكومة البريطانية نشر، فيما بعد، في كتاب بعنوان: «البحر الميت: طريق جديد الى الهند». وتضمن التقرير اقتراحا بشق قناة تربط خليج حيفا بوادي الأردن، بالقرب من بيسان، ثم بالبحر الميت، ثم بخليج العقبة، حيث يقام ميناء عميق، ومنه الى شرم الشيخ فالبحر الأحمر والمحيط الهندي. وكان الاقتراح يعتمد على ارتفاع منسوب المياه في البحر الميت وخليج العقبة بحيث يصبح من الممكن ابحار السفن من البحر المتوسط الى هذا الخليج.

غير أن المشروع أهمل لكلفته الباهظة ولتصميم بريطانيا على السيطرة على شركة قناة السويس. ومع أن هذه الدولة وفقت، بعد سنوات قليلة، في مسعاها وحصلت على الغالبية من أسهم القناة، فان نظرتها الى المستقبل بقيت تتسم بالخوف والقلق. لقد كانت تخشى عودة القناة الى مصر واحتمال حرمانها من فوائدها. ولهذا عادت من جديد تفكر في احياء مشروعها القديم.

وكان الجنرال (تشارلز غوردون Gordon، المشهور بدوردون باشا) حاكما للسودان ومن أصحاب الاختصاص، فأوفدته بريطانيا، ما بين عامي ١٨٧٣ و ١٨٧٥، الى فلسطين على رأس بعثة من الخبراء لدراسة الموضوع. فما كان منه الا أن طور مشروع سلفه بادخال بعض التحسينات عليه. وقد اعتقد بأن القناة ستستخدم كمانع مائي في وجه غزو روسي محتمل يأتي عن طريق العراق والأردن، وارتأى اغراق البحر الميت بمياه القناة التي ستجر من الشمال، فيرتفع بذلك منسوب المياه في البحر الميت الى منسوب سطح البحر المتوسط، مما يسمح للمياه بالتدفق جنوبا حتى خليج العقبة[٥].

واطلع تيودور هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية، على مختلف المشاريع التي ترمي إلى الاستفادة من تفاوت الارتفاع بين سطحي البحرين بوصلهما بقناة، فتبنى الفكرة وتحدث في كتابه «الأرض القديمة الجديدة»، الصادر في عام ١٩٠٢، عن قناة عرضها عشرة أمتار تربط البحرين، وعن طوربينات مائية قرب البحر الميت تديرها المياه المتساقطة فتولد تيارات كهربائية تغذي المنطقة الصناعية الجديدة التي ستقام على شاطىء البحر الميت[٦].

وفي عام ١٩٤٤، صدر لخبير عالمي في استصلاح الأراضي وريها، هو المهندس (والتر




□ خريطة رقم (٢): مشروع الخط الاوسط (تلميحيم ـــ قمران).

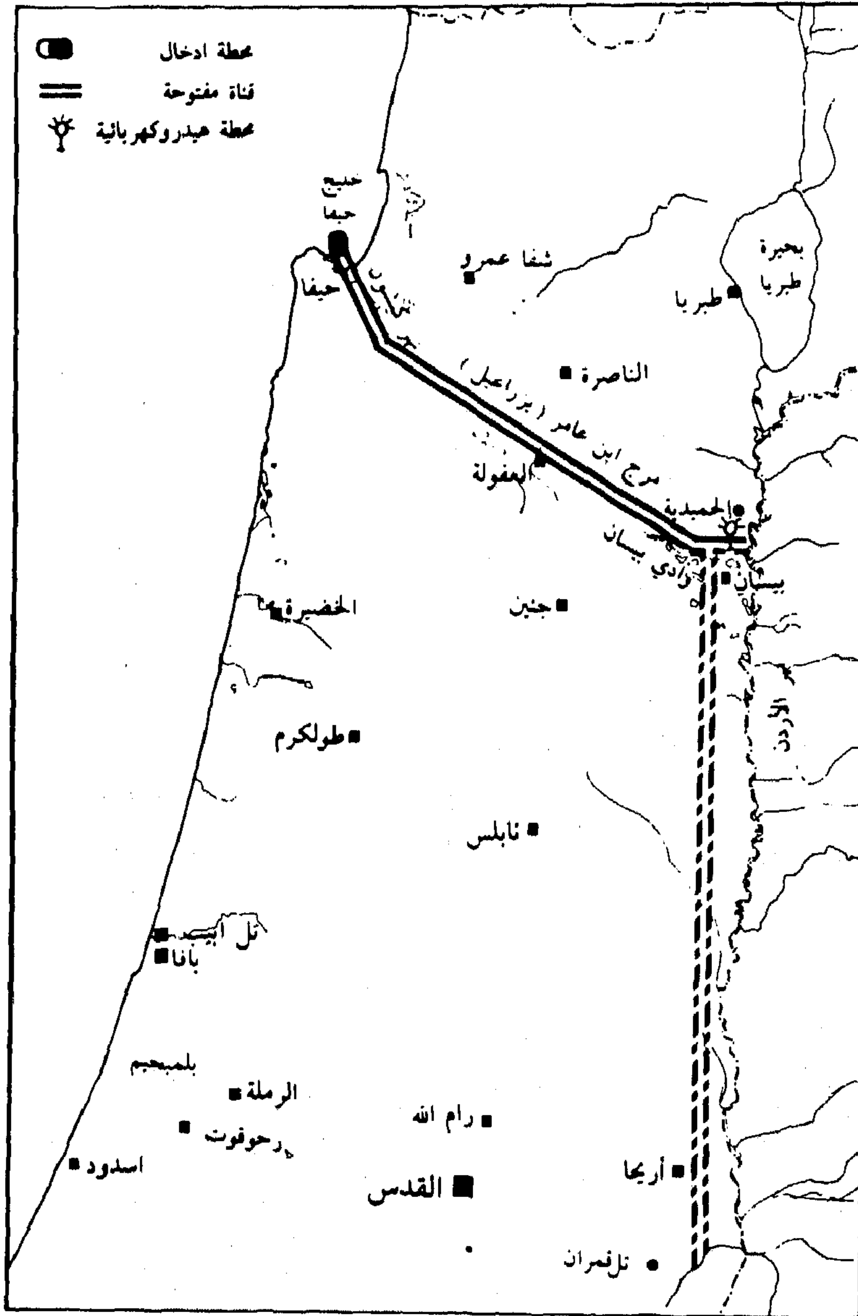
كلاي لاودرميلك)، كتاب بعنوان: «فلسطين أرض الميعاد»، تضمن أول مخطط شامل لتنمية الموارد المائية في فلسطين داخل الاطار السياسي والاقتصادي للمطامح الصهيونية في دولة يهودية. وقد ورد في الكتاب ما يلي:

«ان لفلسطين حاجتين رئيسيتين: المياه والطاقة. والمياه متوافرة من تدفق نهر الأردن. أما الطاقة الكامنة فمتوافرة في الانحدار السريع والهادر للنهر الى عمق البحر الميت. وهكذا فان الأهداف الأساسية لهيئة وادي الأردن هي تحويل المياه العذبة من الأردن وروافده لأغراض ري الأراضي القاحلة في وادي الأردن ومنحدراته، والانتفاع بالانحدار الشديد لقناة نهر الأردن لأغراض انماء الطاقة. ويتطلب برنامج الطاقة ادخال مياه البحر من البحر المتوسط الى داخل وادي الأردن لتحقيق الغرض المزدوج: تعويض البحر الميت من فقدان مياه الأردن المحولة، واستعمال مياه البحر لانماء الطاقة»(٧).

واشتمل الكتاب على مقترحات لمشاريع مائية تسمح، عند تنفيذها، باستيعاب أربعة ملايين من المهاجرين اليهود الجدد. ولم تكد الوكالة اليهودية تطلع على هذه المقترحات حتى سارعت الى الاستعانة بهيئة (وادي تينيسي) الأميركية لتجسيد مشاريع (لاودر ميلك) بدراسات وتصاميم تفصيلية، فكان مشروع (هيز) لعام ١٩٤٨، الذي ظل، لزمن طويل، المصدر الموجه الأول لجميع المشاريع المائية التي خطط لتنفيذها في اسرائيل(٨).

وعندما أخذ منسوب مياه البحر الميت ينخفض بفعل انحسار مياه نهر الأردن الذي كان نتيجة لضخ مياه بحيرة طبرية نحو النقب، تظاهر المسؤولون في اسرائيل بالهلع ودعوا الى انقاذ البحر الميت بشق قناة تصله بالبحر المتوسط. ولكن التنفيذ تأخر بسبب التمويل الضخم، واستمرار الحروب بين العرب والاسرائيليين، ووضع الضفة والقطاع اللذين بقيا، حتى عام ١٩٦٧، خارج نطاق الاحتلال الاسرائيلي.

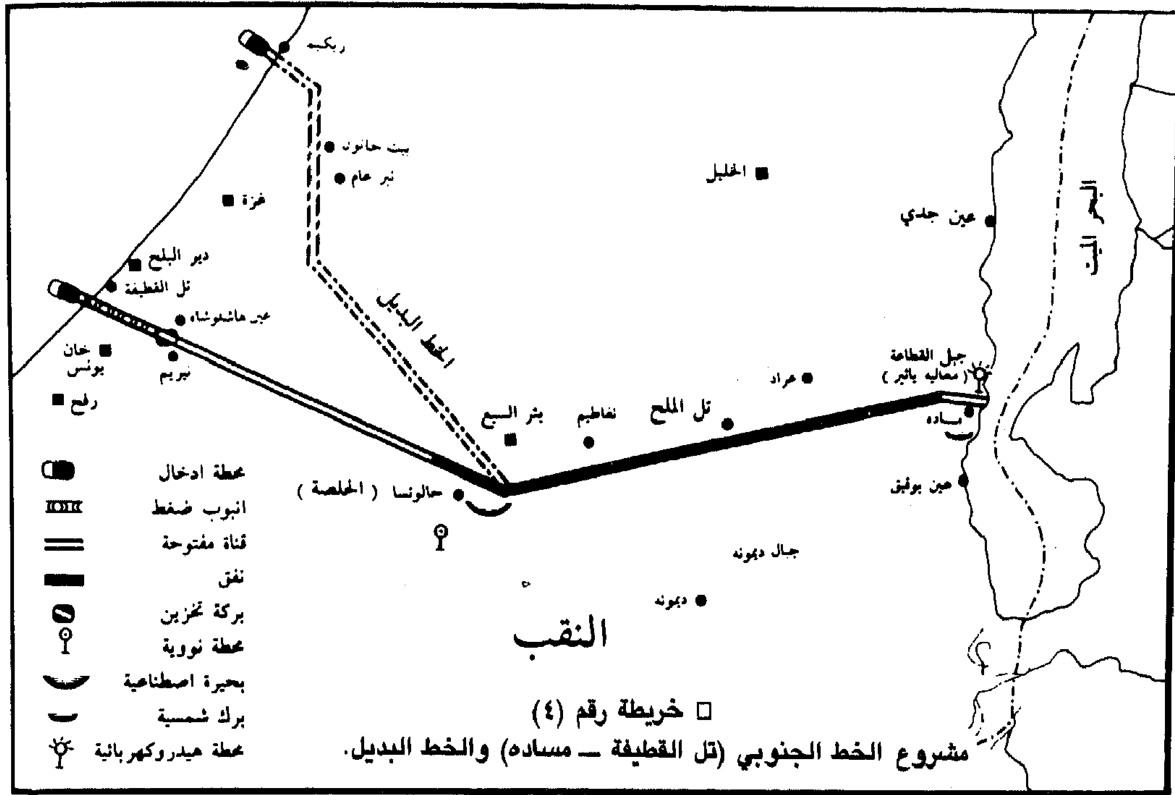
وبعد حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧، بدأت الاستعدادات الجدية للتنفيذ تظهر وتتبلور. وجاءت حرب أكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ تثبت




□ خريطة رقم (٣): مشروع الخط الشمالي (مشروع غور).

لاسرائيل التي لا تملك ثروة نفطية وجوب العمل على تنويع مصادر الطاقة والاهتمام بقطاع الكهرباء. وفي عام ١٩٧٤، عينت الحكومة لجنة لدراسة الموضوع توصلت، بعد عام من الجهود المتواصلة، الى نتيجة مفادها أن تدفق المياه من المتوسط الى الميت يسمح بتشغيل محطة كهربائية بامكانها انتاج كميات ضخمة من الكهرباء ذات مردود اقتصادي كبير.

ولم يكد تجمع الليكود يتسلم، في مايو (أيار) ١٩٧٧، زمام السلطة في اسرائيل حتى سارع الى تشكيل لجنة برئاسة البروفسور يوفال نئمان (وهو عالم في الفيزياء النووية) للاهتمام بشكل نهائي بالمشروع. وقدمت اللجنة توصياتها في عام ١٩٨٠، فأقرتها الحكومة ووافقت على شق قناة تمتد من جنوبي دير البلح في قطاع غزة حتى منطقة مساده على البحر الميت. ومن المنتظر أن تكون القناة جاهزة وصالحة للعمل في بداية التسعينات من هذا القرن.




□ خريطة رقم (٤)
مشروع الخط الجنوبي (تل القطيفة ـــ مساده) والخط البديل.

وعلى الرغم من استمرار الجدل في اسرائيل، على جميع المستويات، حول جدوى المشروع وما سيترتب على تنفيذه من انعكاسات ونتائج، وبغض النظر عن الكيفية التي سينفذ بها المشروع، والمدة التي سيتطلبها التنفيذ، والخط الجغرافي الذي ستمر به القناة (عبر قطاع غزة، أم عبر الضفة الغربية)، فان التصميم على شق القناة يطرح، في القانون الدولي العام، سؤالا واضحا: هل يجوز لدولة الاحتلال أن تتصرف بأراضي شعب خاضع للاحتلال، وتستغل، بطريقة غير مشروعة، ثرواته وموارده الطبيعية؟ ●

## المراجع

(١) راجع صحيفة معاريف في ١٩٨٠/٨/٢٥. وراجع مقال (يوفال نئمان) بعنوان: «مياه حياة لا مياه نزاع» في الصحيفة المذكورة، في ١٩٨١/١٠/١. وقد اعتمدنا في نقل معظم المقتطفات العبرية على كتاب: قناة البحرين المتوسط والميت، لسمير جبور، ويولا البطل، ورنده حيدر. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨١.
(٢) صحيفة دافار، في ١٩٨٠/٩/١٩.
(٣) جرت الانتخابات النيابية لاختيار أعضاء الكنيست العاشر، في ١٩٨١/٦/٣٠، وتميزت بحصول تجمع الليكود، الذي يتزعمه بيغن، على أكبر نسبة من المقاعد.
(٤) انتقد المجلس القومي للتخطيط احتفال التدشين الذي سبق الانتخابات، وذكر أن المشروع لم يتم التصديق عليه بعد. راجع ما كتب في صحيفة (Jerusalem Post) في ١٩٨١/٥/٢٩.
(٥) راجع ملحق صحيفة هارتس، في ١٩٨٠/٧/٤.
(٦) نقلا عن مقال د. عبد القادر ياسين: المشروع الاسرائيلي لربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الميت. مجلة شؤون فلسطينية، العدد ١٣٢ ـــ ١٣٣، نوفمبر ـــ ديسمبر ١٩٨٢، ص ٩٠.
(٧) راجع مقال الباحثة مروة أديب جبر: مشروع اسرائيل لتوصيل البحر الأبيض بالبحر الميت. مجلة شؤون عربية، العدد ٣، مايو ١٩٨١، ص ٢٨٦.
(٨) راجع دراسة المهندس صبحي كحالة عن: المشكلة المائية في اسرائيل وانعكاساتها على الصراع العربي الاسرائيلي. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سلسلة: أوراق المؤسسة، رقم ٩، ص ١٠.

**الخرائط من كتاب:**
**المشروع الاسرائيلي واخطاره ـــ قناة البحرين المتوسط والميت**
**اعداد: سمير جبور ـــ يولا البطل ـــ رنده حيدر**
**مؤسسة الدراسات الفلسطينية**

# موطنها لبنان
# أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجوية اللبنانية
# جذورها راسخة في الشرق الأوسط
# وأغصانها ممتدة في أرجاء الدنيا




نيويورك

باريس لندن

فرانكفورت كوبنهاغن

جنيف بروكسل

زوريخ مدريد

نيس تونس

ميلانو مونروفيا

روما ابيدجان

اثينا لاغوس

اسطنبول كانو

بيروت

مسقط القاهرة

رأس الخيمة لرنكا

أبو ظبي انقرة

دبي عمان

الدوحة بغداد

البحرين جدة

الظهران الخرطوم

الكويت عدن

# الفكر العربي الإسلامي

## أعلاما ومؤلفات ٧

د. نقولا زيادة

كان الرازي أول طبيب عربي وضع ما يصح أن يسمى دليلا طبيا ينتفع به الطبيب وطالب الطب. وفصوله كذلك نقطة انطلاق في المجال العلاجي. أما ابن الهيثم فأول من وضع علم البصريات، على قواعد سليمة لا في دنيا العرب والاسلام فحسب، بل في دنيا العلم كله. والبيروني أول من شغل بالعلم عن قطر أجنبي بعد أن اتقن لغة أهله، اذ كان يعرف السنسكريتية مثلا.

### المرشد والفصول، للرازي



عاش الرازي الطبيب في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة وأوائل القرن الرابع (أي في الثلث الأخير من القرن التاسع للميلاد والربع الأول للقرن العاشر). وهذه فترة، كما نعرف، من الفترات الغنية بالنتاج الفكري في العالم العربي الاسلامي. ونود أن نسمح لأنفسنا بتذكير القراء الكرام بما كان قد تم في حقل الترجمة في بغداد على الأقل في الوقت الذي تصدى الرازي فيه للطب أستاذا وطبيبا ممارسا وسريريا مشرفا على شؤون البيمارستان.

كانت الترجمة قد بدأت عملا افراديا في أواخر العصر الأموي وبدء الدولة العباسية، وكان أبو جعفر المنصور أول من جعل الترجمة عملا منظما. فقد كان في قصره مكتبة ثم أنه نقل عن الشعوب التي احتك العرب بها، فيما نقل، العناية بالكتاب والمترجمين. فلما ولي الأمر هارون الرشيد ولى يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون، ووضعه أمينا على الترجمة ورتب له كتابا حاذقين يكتبون بين يديه.

وأنشأ ابنه المأمون بيت الحكمة في بغداد حيث كان يوحنا يقوم فيه بالعمل ولكن رئاسة بيت الحكمة عهد بها الى سلم الترجمان أو المترجم. وفي هذا البيت عمل عدد كبير من التراجمة في نقل كتب الطب والفلسفة وما اليها. فضلا عن ان بيت الحكمة أصبح مجمعا للبحث



الرازي يعالج
احد مرضاه.

العلمي. وقد أحيا المتوكل سنة المأمون فأعاد بيت الحكمة الى عزه سنة ٢٤٠ للهجرة (أي ٨٥٥ للميلاد) وعين حنين بن أسحق رئيسا للترجمة هناك. ومعنى هذا كله أنه حول منتصف القرن الثالث للهجرة (أي القرن التاسع للميلاد) كانت الكثرة المطلقة من الكتب الطبية، وغير الطبية طبعا، قد نقلت الى العربية وأصبحت في متناول الراغبين في العلوم الطبية.

والذي نراه أن القرن الثالث للهجرة (أي القرن التاسع للميلاد) يمثل في تاريخ الفكر العربي نقلة هامة وهي أن المشتغلين بالفلسفة والطب والعلوم الأخرى اتجهوا الى جعل هذه كلها علوما أصيلة. ففي الفلسفة، كما نعرف، عمل الكندي على خلق نزعة فلسفية عربية اسلامية بحيث لا تظل الفلسفة غريبة على العرب المسلمين.

ونعرف أن الطبري، وهو من أهل القرن نفسه نظم كتابة التاريخ على نطاق واسع كما أنه وضع تفسيره بحيث اختطفي ذلك سبيلا سوياً للمفسرين. ويخيل الينا أن عمل الرازي في الطب كان شيئا مثل هذا، جعل الطب عربيا مطابقا للحاجات الجديدة التي كان المجتمع يتطلبها.

ولد أبو بكر محمد بن زكريا الرازي في الري سنة ٢٥١هـ (٨٦٥م) وفيها نشأ. واشتغل الرجل أول أمره بالنواحي الفلسفية والأدبية ثم انتقل الى الطب. والذي نعرفه أن الطب والفلسفة كانا موضوعين متلازمين عند العرب، بحيث يكاد يكون جميع الفلاسفة العرب من الكندي الى ابن رشد أطباء أيضا. لكن الأمر الحري بالعناية هو أن تغلب نزعة على الأخرى. فالرازي مثلا يمكن اعتباره طبيب الفلاسفة بينما يمكن أن نرى في ابن سينا فيلسوف الأطباء.

وانتقل الرازي الى بغداد، وأي عالم في تلك الأزمنة لم يزر بغداد أو لم يقم بها طويلا. وفي بغداد كان ساعورا أي ناظرا للبيمارستان هناك. ولكن الرازي كانت فيه رغبة للتنقل فقد قضى شطرا من حياته في جهات الري وعمل عند عدد من الأمراء طبيبا أو ناظرا للبيمارستان ان وجد. وقد أصاب الرازي العمى في اخر حياته ولما قيل له أن يقدح عينيه ليشفى قال انه رأى من الدنيا ما فيه الكفاية وتوفي وهو كفيف البصر في الري وذلك في سنة ٣١٣ للهجرة (٩٢٥ للميلاد) على أصح التقديرات.

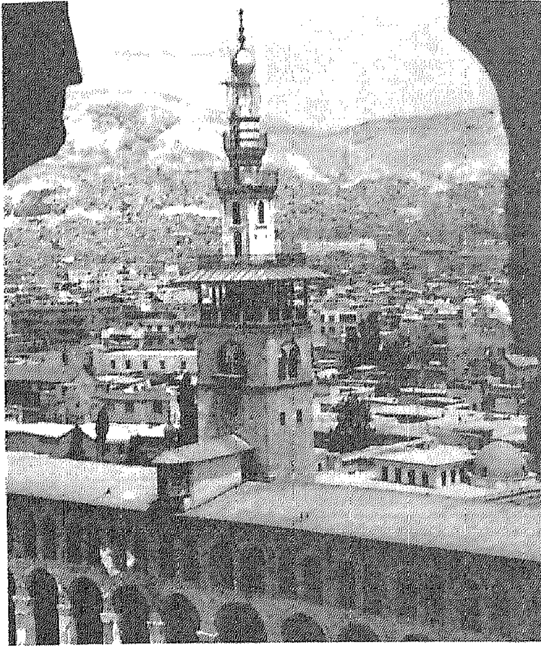
وللرازي مؤلفات كثيرة في الطب وغيره، ولكننا نكتفي هنا بالاشارة الى الأهم من كتبه الطبية وهي: المنصوري وقد وضعه بناء على رغبة الأمير منصور بن اسماعيل صاحب خراسان. والملوكي وقد ألفه لعلي بن صاحب طبرستان وعرض فيه للعلل وأعراض الأمراض كلها واصلاحها بالأغذية. والحاوي وهو، على ما يقول ابن أبي اصيبعه، أشهر كتبه. وقد روى هذا المؤرخ القاص ان ابن العميد، استاذ الصاحب بن عباد، كان السبب في اظهار كتاب الحاوي. «فقد طلبه بعد وفاة الرازي من أخت هذا، فأظهرت له مسودات الكتاب فجمع تلاميذه من الأطباء الذين

كانوا بالري حتى رتبوا الكتاب. وفي هذا الكتاب جمع الرازي كل ما وجده متفرقا في ذكر الأمراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ومن أتى بعدهم الى زمانه ونسب فيه كل شيء نقله الى قائله. هذا مع أن الرازي توفي ولم يقسم له في الأجل أن يحرره. «وكثيرا ما يوجه النقد للرازي بسبب الفوضى في هذا الكتاب، ولكن يجب أن نذكر أن هذه كانت مذكرات خاصة جمعت فيها أمور كثيرة متعددة متنوعة ولم يقصد منها التأليف أصلا.

ولكن الرازي أبرز في كتبه الصغرى، والتي نجد فيها ما أشرنا اليه، انه رمى فيما وضع الى شيء من تنظيم المعرفة الطبية. فنحن نجد له كتبا في هيئة القلب والصماخ والمفاصل واقراباذين وكيفية الاغتذاء والأدوية المركبة. وغيرها كثير.

ولكن ثمة كتابين حريين باهتمامنا الخاص لأنهما يبرزان قيمة الرازي ويوضحان الدور الذي قام به كطبيب وكأستاذ وهما مقالة في الحصبة والجدري وكتاب المرشد أو الفصول. وقد كان الرازي أول من فرق بين مرضي الحصبة والجدري من الناحية السريرية، ولا تزال أمور كثيرة مما ذكرها صالحة الى يوم الناس هذا. فضلا عن أن هذه الرسالة هي «قطعة رائعة في أدب الطب».

أما المرشد أو الفصول فهو كتاب منظم وضعه الرازي بعد تجارب واختبارات وتدريس للطب ومعاناة ادارة البيمارستان مدة طويلة. لذلك لا نجد فيه التشويش الموجود في الحاوي. وقد رأينا أن ننقل للمستمعين شيئا مما جاء في هذا الكتاب. قال الرازي في فصل تركيب الأدوية: «لو أمكن في كل موضع علاج بدواء منفرد، لاستغني عن تركيب الأدوية، لكن يمنع من ذلك خلال. فمن هذه الخلال المحوجة الى تركيب الأدوية انه ربما كان الدواء الذي ينفع من علة ما، أو يقوي عضوا ما، يضر بأخرى، فنضطر أن نركب معه ما يمنع من ذلك... وتكون أدوية كلها نافعة لعلة ما، الا أن بعضها أنفع من بعض لبعض الأبدان والأمزاج. فيريد الطبيب أن يكون عنده دواء يصلح أن يستعمل في علل كثيرة للتخفيف عن نفسه في الاسفار ونحوها، فيضطر أن يركب ذلك الدواء من أدوية نافعة لعلل شتى،



دمشق، ومسجدها الأموي.

كالترياق مثلا. فانه بما فيه من سموم الأفاعي يوهن سمومها وبما فيه من الأدوية الأخر النافعة ـــ كل واحدة منها من سم ما ـــ ينفع من كثير من السموم، وبما فيه من الأفيون يعقل البطن ويمنع نفث الدم، وبما فيه للأدوية المدرة للبول والملطفة ينفع من أوجاع المفاصل والغليظة الى منافع أخر كثيرة. ومنها انه ربما احتيج أن يخرج من البدن أخلاطا مختلفة، فيحتاج أن يركب الدواء من أدوية كل واحدة منها يخرج خلطا من الأخلاط».

وفي الفصل الذي عقده بعنوان المرض والسبب والعرض يقول: «ما دام الجسم بأجمعه أو بعض أعضائه يفعل أفعاله التي تخصه بمقدار المادة الجارية له، وبلا وجع فهو سليم صحيح... والمرض هو أن لا يقدر العضو على فعله الذي يخصه البتة، أو يقدر عليه قدرة ضعيفة، أو يكون موجعا... وأجناس أسباب المرض الأول جنسان تغير الشكل وتغير المزاج... فالخلع والكسر في اليد تغيير في الشكل، وتغير المزاج ما قد يصيب الكبد أو القلب مثلا اذا صار أسخن أو أبرد مما كان... ويتبع ذلك أننا اذا أصبنا ضروب تغير الشكل والمزاج والأسباب المحدثة لها فقد أصبنا أجناس وأسباب الأمراض الأول».

هذا كتاب من كتب الرازي المرتبة والمنظمة لصناعة الطب. ونود أن نذكر هنا أيضا أن الرازي وضع تعابير ومصطلحات طبية دقيقة ليسترشد بها من يأتي بعده، فالمرض الغامض هو الذي يؤدي الى الموت فجأة، والمرض الكمين هو علة يشعر بها المريض عقب علة أكربته، وضربة أي مرة واحدة يقول ارتفعت الحمة ضربة، بديعة بمعنى غير مألوفة فعند تقطير البول تجد فيه أشياء بديعة أي غريبة، والدائرة الحمى التي تنوب. ومثل هذه عشراء عنده.

لعل الرازي لم يكن مبتكرا في الطب، باستثناء الحصبة والجدري، ولكنه كان «من غير شك رجلا تفرغ للعلم والدرس والتأليف والعلاج. وفي هذه كلها كان له فضل الايضاح والتطبيق الحسن والتنظيم العلمي».

فهو واحد من أولئك الذين ساعدوا على خلق العلم.

●

# كتاب المناظر، لابن الهيثم

ولد الحسن أبو علي بن الحسن بن الهيثم في البصرة سنة ٣٥٤ للهجرة (حوالي سنة ٩٦٥ للميلاد) على الترجيح. ولكنه كان كثير الأسفار فلم يستقر بها. وتوفي سنة ٤٣٠ للهجرة (سنة ١٠٣٩ ميلادية) في القاهرة. فهو بذلك من أهل القرنين الرابع والخامس للهجرة (أي القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد).

واذا كان العرب، في بدء اتصالهم بالثقافات الأخرى، نقلوا عنهم الطب والفلسفة وعلم النجوم، فانهم لم يلبثوا أن انتقلوا الى ترجمة الكتب الاغريقية والهندية والفارسية في العلم الطبيعي والرياضي، من «هندسة ومخروطات وجبر وحساب مثلثات وارتماطيقي وما يتصل بها من بصريات هندسية ومرايا محرقة وفلك وميكانيكا، ما يتناول مراكز الاتصال ورفعها والحيل وما إلى ذلك». وأخذ الاسلاميون أنفسهم في شرح هذه المترجمات والتعليق عليها والاضافة بما يبتكرون ويبدعون. وفي خلال ذلك وعقبه ظهر بين العرب والمسلمين فلاسفة وعلماء وأطباء وأفذاذ كثيرون، هم الذين وضعوا العلوم والفلسفة في قالب عربي وصيروها فكرا عربيا اسلاميا. فابن الهيثم، الذي ولد في أواسط القرن الرابع للهجرة (أي القرن العاشر للميلاد)، على ما يقول عنه مصطفى نظيف «شهد عصرا صاخبا بجلبة الحركة الفكرية ذا المتدفقة، ومزدهرا بشتى الاراء لا في أمور الاعتقادات والمذاهب الشرعية، ولا في أمور اللغة والأدب فحسب، بل في الأمور الفلسفية والعقلية والعلوم التعليمية أيضا. فقضى في صبر ومثابرة مرحلة طويلة من حياته كانت بغيته فيها الالمام بنواحي النشاط الفكري السائد في ذلك العصر. وأخذ يدرس كل ما وقعت عليه يداه مما كان متوافرا من كتب المتقدمين. «ولكي ندرك مدى الجهد الشخصي الذي بذله ابن الهيثم يجب أن نذكر أنفسنا بأن أيامه لم تكن فيها مدارس يتلقى المرء فيها هذه العلوم. وحتى بيت الحكمة الذي عرف قبله بنحو قرن من الزمان كان قد عفى أثره.

ولم يكن ابن الهيثم يكتفي بقراءة هذه الكتب، بل كان يعد لها خلاصات، أو مذكرات كما نقول نحن اليوم، لكي يدرك دقائق المعاني الواردة فيها، وينتفع بها طلاب العلم. وقد قال ابن الهيثم نفسه في ذلك: وأنا، ما مدت لي الحياة، باذل جهدي ومستفرغ قوتي في مثل ذلك متوخياً منه أمورا ثلاثة: أحدها افادة من يطلب الحق ويؤثره في حياتي وبعد مماتي. والاخر انني جعلت ذلك ارتياضا لي بهذه الأمور في اثبات ما تصوره واتقنه فكري من تلك العلوم. والثالث أنني صيرته ذخيرة، وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم.

وهذه الخلاصات لم تكن تلخيصا لعلم الأقدمين والمعاصرين فحسب، بل ان صاحبها كان يضيف اليها ما يرتأيه. وقد بلغت هذه الكتب عشرات منها ثلاثة وأربعون في العلوم الفلسفية



ابن الهيثم: العالم العربي
الذي حل للعالم، مشكلة الأبصار.

والطبيعية، وخمسة وعشرون تتناول العلوم الرياضية وما اليها، وكتابان في الطب. ولنذكر على سبيل المثال قوله هو عن كتابين منها من وضعه.

**الأول ــ الجامع في أصول الحساب** الذي يقول عنه «واستخرجت أصوله لجميع أنواع الحساب من أوضاع أوقليدس في أصول الهندسة والعدد، وجعلت السولك في استخراج المسائل الحسابية بجبهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي. وعدلت فيه عن أوضاع الجبريين والمنجمين».

**والثاني ــ كتابه في الأصول الهندسية والعددية**، الذي يصفه بقوله: «كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب أوقليدس وأبولونيوس ونوعت فيه الأصول وقسمتها وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية، حتى انتظم ذلك، مع انتقاص توالي أوقليدس وأبولونيوس».

واذا كان ابن الهيثم عالما موسوعيا، فانه كان الى ذلك مهندسا عمليا. فقد وضع كتابين في ذلك أحدهما في عقود الأبنية والثاني في المساحة. وقد جاء في كتاب أرشاد القاصد الى اسنى المقاصد للانصاري عن علم عقود الأبنية والمساحة ما يلي:

«**الأول ــ** هو الذي يتعرف منه أحوال أوضاع الأبنية وكيفية شق الأنهار وتنقية القنى وسد البثوق وتنضيد المساكن. ومنفعته عظيمة في عمارة المدن والقلاع والمنازل وفي الفلاحة... (وعلم المساحة) علم يتعلم منه مقادير الخطوط والسطوح والأجسام، ما يقدرها من الخط والمربع والمكعب، ومنفعته جليلة في أمر الخراج وقسمة الأرضين وتقدير المساكن وغيرها».

عاصر ابن الهيثم الخليفة الحاكم بأمر الله، الذي كان يرعى العلماء في القاهرة والذي أنشأ دار الحكمة التي عرفت بدار العلم أيضا. وقد رغب الحاكم ابن الهيثم في الحضور الى مصر لما سمع به فجاء الى القاهرة. ولكن الأمور لم تجر هناك على ما اشتهى ابن الهيثم، فقد ولي منصبا اداريا بدل أن يضم الى بيت العلم. ولكن لما توفي الحاكم سنة ٤١١ هجرية (أي سنة ١٠٢٠ ميلادية)، عاد ابن الهيثم الى أعماله العلمية وبحوثه وقضى زهاء ثمانية عشر عاما في ذلك. وفي هذه الفترة وضع كتاب «المناظر» والكتاب قمة في تاريخ العلم، وصاحبه قمة في تاريخ الفكر العربي الاسلامي.

يقول المرحوم محمد كامل حسن أننا عندما نبحث في تاريخ العلوم عند العرب يجب أن نغير أسلوبنا. «فقد آن لنا أن نرجع الى المصادر الأولى لهذا العلم، وأن لا نأخذ بما قال الناس عنه قديما أو حديثا. ولدينا الكثير من مؤلفات العلماء العرب ومنها نستطيع أن نحدد أسلوبهم في التفكير وحظهم من العلم... ومن أجمل الأمثلة على أسلوب التاريخ العلمي الذي يقوم على الأصول ما فعله الأستاذ مصطفى نظيف بابن الهيثم. فقد درس مؤلفاته درسا عميقا، وأقام المجد العلمي لابن الهيثم على أسس لا شك فيها».

وكتاب مصطفى نظيف، الذي نشر سنة ١٨٤٢ في القاهرة، نموذج على ما يسمى في تاريخ العلم دراسة من الداخل. وعليه اعتمدنا في تلخيص الدور الذي قام به ابن الهيثم العالم في تاريخ الفكر العربي الاسلامي. وسنكتفي بالناحية العلمية تاركين الاتجاه الفلسفي في تفكير ابن الهيثم، الا حيث يكون هذا موضعا للأولى.



البصرة، مسقط رأس ابن الهيثم.

ابن الهيثم في بحوثه الطبيعية يجعل غرضه أولا الكشف عن أحكام أو قواعد أو قوانين، ثم يبني على ما ينكشف منها فهو لا شك يعتقد أن ظواهر الطبيعة تجري على نظام، ويتكرر حدوثها على نهج واحد يتوافر فيه التجانس والانسجام والتماثل. وفي كتاب المناظر الكبير، كما في دراساته الأصغر، كان ابن الهيثم يضع هذه القاعدة نصب عينيه. وليس المهم فقط أن ابن الهيثم اكتشف قواعد الضوء والبصر والنظر وما الى ذلك، ولكن المهم أيضا أن الرجل اتبع في الوصول الى ذلك طريقة علمية. والطريق العلمية التي اتبعها ابن الهيثم، على ما ارتآه مصطفى نظيف، تعتمد على العناصر الثلاثة الهامة وهي: الاستقراء والقياس والتمثيل.

جاء في مقدمة كتاب المناظر بيان الطريقة التي لجأ اليها ابن الهيثم في بحثه. فقد كان ثمة رأيان بين المتقدمين في كيفية الأبصار، أما بخروج اشعاع من البصر الى المبصر أو بورود صورة المبصر أو شبحه من المبصر الى البصر. يقول ابن الهيثم في ذلك:

«وكل مذهبين مختلفين أما أن يكون أحدهما صادقا والاخر كاذبا، وأما أن يكونا جميعا كاذبين والحق غيرهما جميعا، وأما أن يكونا جميعا يؤديان الى معنى واحد هو الحقيقة، ويكون كل واحد من الفريقين القائلين بذينك المذهبين قد قصر في البحث... ولما كان ذلك كذلك، وكانت الحقيقة هذا المعنى، مع اطراد الخلاف بين أهل النظر المتحققين بالبحث عنه على طول الدهر ملتبسة، وكيفية الأبصار غير متيقنة، رأينا أن نصرف الاهتمام الى هذا المعنى بغاية الامكان، ونخلص العناية به ونتأمله، ونوقع الجد في البحث عن حقيقته، ونستأنف النظر في مباديه مقدماته... ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات، وتميز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس. ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب، مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الاراء... فلعلنا ننتهي بهذا الطريق الى الحق».

وقد استدل ابن الهيثم، في جميع بحوثه في الضوء، على القواعد أو القوانين الأساسية بتجارب. وفي جميع هذه التجارب اتخذ أجهزة

أو الات خاصة، جرى في استعمالها على نظام خاص... وعمله لم يكن مقصورا على مجرد اجراء التجارب، بل تضمن انشاء أجهزة أو الات استعملها في تلك البحوث، وان كان قد سبقه الى أمثال بعض الآلات التي استعملها بعض المتقدمين كبطليموس مثلا، فانه قد عدلها وغير تصميمها وأصلحها، بما جعلها قمينة أن تحقق الأغراض التي أرادها، ومنها ما كان معقد التركيب دقيق الأجزاء عسير الصنع. وهو لا يكتفي بمجرد وصفها، وبيان كيفية استعمالها، وانما يأتي في شرح مسهب بتفصيل كيفية صنع الأجزاء المختلفة التي تتركب منها الآلة، مفصلا ذلك غاية التفصيل.

هذا هو العالم العربي الذي حل للعالم مشكلة الابصار نهائيا، وذلك في القرن الخامس الهجري، (أي القرن الحادي عشر للميلاد).

## القانون المسعودي وكتاب الهند، للبيروني

في الوقت نفسه الذي كان ابن الهيثم يعمل جاهدا في اكتشاف سر الأبصار، وقد تسلح بالمعرفة العلمية التي أهلته لذلك، وحذا في نفسه وسائل البحث وأساليبه، واهتدى الى صنع الآلات اللازمة لذلك — في الوقت نفسه كان عالم آخر يعمل جاهدا في توضيح قضايا فلكية، واصلاح أخطاء سابقة في الازياج. كان ابن الهيثم يعمل في القاهرة، وكان عالمنا الآخر، وهو البيروني، يعمل في فرغانة التي تقع في حدود أفغانستان اليوم. وليس المهم أن تكون اهتمامات الرجلين مختلفة، بل المهم أن يكون الأسلوب الذي سارا عليه فيه كثير من التشابه. اذ كان يقوم على اجراء التجارب والاستقراء والقياس. هذا مع العلم أن بين شخصيتي علمينا فرقا كبيرا فيما يتعلق بالحياة العامة، وان كانا يتفقان في تواضعهما، وصفاء خلقهما واخلاصهما للعلم والمعرفة.

ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني سنة ٣٦٢ للهجرة (أي سنة ٩٧٣ للميلاد) في خوارزم. والمرجح أن مولده كان في ضاحية من ضواحي كاث عاصمة خوارزم. ويبدو أن اسم الضاحية كان بيرون، وهو اسم أطلق على مكان كان التجار يقطنون فيه خارج أسوار العاصمة، للتخلص من دفع المكوس المترتبة عليهم. وقد عمل في مطلع عهده مع عالم من علماء النبات يجمع له الكثير منها ويرتبها، فأكسبه أنواع العلوم المختلفة، وخاصة فيما يتعلق بالعلوم الرياضية والفلكية والجغرافية. وكانت له رغبة شديدة في التاريخ أيضا. ومع أن البيروني لم يكتب، فيما نعلم، في شؤون الفلسفة شيئا مستقلا، فان الذي يقرأ ما كتبه عن أديان الهند وفلسفاتها يدرك تماما ان الرجل كان يعرف ما كان قد وصل الى العالم العربي الاسلامي، وأكثر قليلا، بسبب معرفته لليونانية والسريانية. كما أن ما ذكره في جماع كتبه عن الفرق المسيحية يدلنا على فهمه لملابساتها. ولعله من أوائل العلماء المسلمين الذين فهموا الأديان الأخرى فهم تعلم لا فهم مناقشة فحسب.

وقد كان بين الذين أعانوه على دراسة الفلك، قبل أن يتوغل فيه بحيث يصبح أحد أئمته استاذه أبو نصر منصور بن علي بن عراق. وقد اتصل البيروني بابن سينا.

كان البيروني يشترك في الحياة العامة أي في الحياة السياسية في بلاده. فقد كان في جماعة خوارزم شاه. فلما اغتيل الرجل، وجد البيروني أن الحيطة تقضي عليه بأن يغادر وطنه. ففعل ذلك سنة ٣٨٥ هجرية (١٠٠٤م) وذهب الى جرجان. وهناك التحق ببلاط السلطان أبي الحسن قابوس حيث قضى قرابة خمس عشرة سنة. وفي تلك الأثناء وضع كتابه المسمى الآثار الباقية عن القرون الخالية عن التقاويم والفلك وما عرفته الأمم السابقة من وسائل قياسات الزمن والازياج.

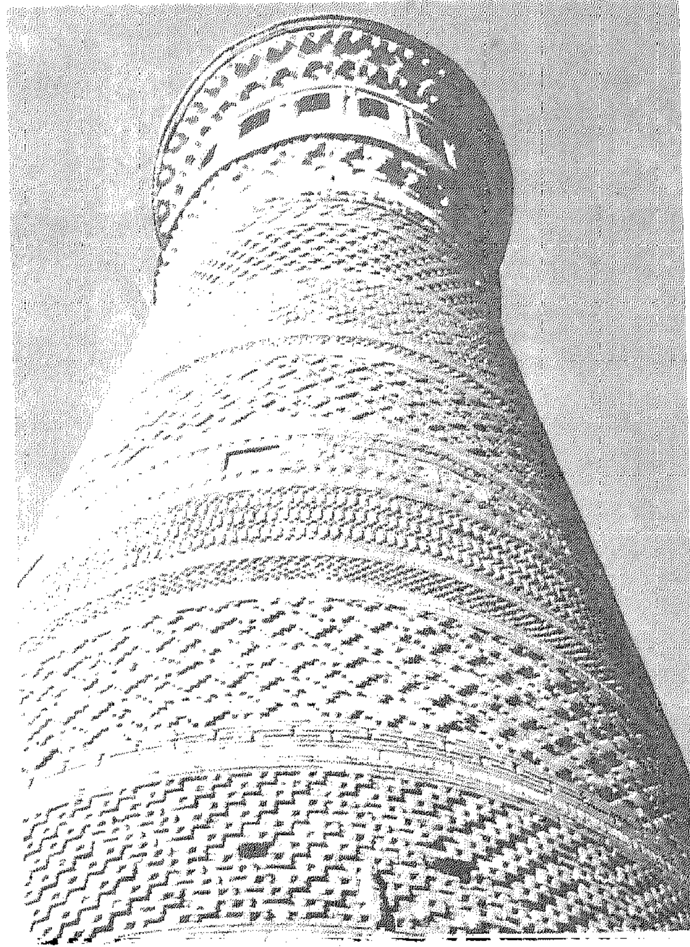


البيروني: صاحب اكثر من مائة مؤلف في الجغرافيا والتاريخ وعلم الفلك والحساب، وعلم الصيدلة.

وعاد الى وطنه بعد هذا الغياب الطويل، ولعله ضمن، قبل دعوته، أن الذين اغتالوا خوارزم شاه واستولوا على السلطة لن يمسوا البيروني بسوء. ولعلنا لا نعدو الصواب اذا حسبنا أن الأمير ابن مأمون رغب في أن يكون في بلاطه رجل في معرفة البيروني وشهرته. وقد كلفه فيما بعد، مهمات سياسية. ومع أنه كان في البلاط فقد استمر في بحوثه ودراساته، لكن الوقت الذي كان يمكن أن يعطيه لها كان أقل مما يجب. وفي سنة ٤٠٧ هجرية (١٠١٧م) غزا محمود بن سبكتكين خوارزم واحتلها وحمل علماءها الى غزنة. فلما توفي محمود وخلفه ابنه مسعود قرب البيروني وأحاطه بكل تقدير وعناية. وهنا كتب البيروني كتابه الموسوعي النفيس في الفلك فأسماه القانون المسعودي في الحياة والنجوم، نسبة الى مسعود نفسه.

وأخذ مسعود نفسه بغزو شمال غرب الهند، واصطحب البيروني في غزواته. وهنا تعلم عالمنا اللغة السنسكريتية وبذلك تمكن من الاطلاع على شؤون الهند بطريقة لم تتح لعالم مسلم قبله. وهنا فرق أساسي بينه وبين المسعودي الذي زار الهند طويلا وكتب عنها، لكنه لم يستطع أن يسبر غور الحضارة الهندية وأديان الهنود وفلسفاتهم. وعن الهند وضع البيروني كتابه المشهور «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»، والذي يسمى كتاب الهند اختصارا. وظلت غزنة موطن البيروني الى أن توفاه الله في سنة ٤٤٠ للهجرة (أي سنة ١٠٤٨ للميلاد)، على أرجح الروايات.

كان البيروني مثال العالم من حيث العلم للعلم. فقد روي أنه لما وضع القانون المسعودي أهداه السلطان مسعود حمل فيل من القطع



بناء مدرج من الحجر الاحمر يرتفع إلى علو ٢٣٨ قدم.
في دلهي الهند، يعود لعام ١١٩٣م.

الفضية، فاعتذر عن قبول الهدية لأنه كان العالم المخلص لعلمه لا يهمه المال الذي يعطى له مكافأة عن العلم.

كتب البيروني كثيرة، بحيث أنها تتجاوز العشرات. بعضها ضخم كبير كالتي ذكرنا أسماءها، وقسم منها لا يعدو كونه ورقات. وبعضها يشرح فيها البيروني أساليب استدلاله وطرق معالجته للموضوعات. فيما اقتصر في بعضها الآخر على ذكر قواعد أساسية فقط. وهذا من طبيعة الأمور. والمهم أن يذكر أن البيروني في كل ما كتب، كان مثال العالم البحاثة المدقق.

ونحن اذا أخذنا القانون المسعودي مثالا على عمل المؤلف العلمي. نجد أن الرجل غطى فيه جميع الأرصاد والنظريات الفلكية الى وقته مع نقد العالم المطلع، وتفنيد الآراء دون تحيز أو محاباة... واذا استشكل عليه أمر من الأمور كان يعيد الارصاد أو الحسابات بنفسه مرة أو مرات. يقول البيروني في مقدمة كتابه القانون المسعودي «ولم أسلك فيه مسلك من تقدمني من أفاضل المجتهدين ممن طالع أعمالهم واستعمل زيجاتهم على مطايا الترديد الى قضايا التقليد، باقتصارهم على القضايا الزيجية، وتعميتهم خير ما زاولوه من عمل، وطيهم عنه كيفية ما أصلوه من أصل حتى أحوجوا المتأخر عنهم في بعضها الى استئناف التعليل، وفي بعضها الى تكلف الانتقاد والتضليل، اذ كان خلد فيها كل سهو بدر منهم لسبب انسلاخه عن الحجة، وقلة اهتداء مستعمليها بعدهم الى المحجة. وانما فعلت ما هو واجب على كل انسان أن يعمله في صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمنة، وتصحيح خلل ان عثر عليه بلا حشمة. وخاصة فيما يمتنع ادراك صميم الحقيقة فيه من مقادير الحركات

وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة لمن تأخر عنه في الزمان وأتى بعده. وقرنت بكل عمل في كل باب من علله، وذكر ما توليت من عمله ما يبعد المتأمل عن تقليدي فيه ويفتح له باب الاستصواب لما أصبت فيه، أو الاصلاح لما زللت عنه أو سهوت في حسابه».

وفي كتابه عن الهند أوضح البيروني كل ما وصل اليه علمه عن تلك البلاد وأهلها ـ اجتماعا واقتصادا وتاريخا ودينا، وفلسفة وتناسخ أرواح. وهو في هذا كله يصدر عن علم دقيق، ومعرفته باللغة يسرت له ذلك. وقد نقل البيروني بعض كتبهم الى العربية كما نقل شيئا من العربية الى السنسكريتية.

وقد كانت من عادة البيروني أن يوضح في مقدمة كل كتاب له الغاية من تأليفه والأسلوب الذي جرى له. وها نحن أولاء نقتطف من مقدمة كتابه عن الهند ما يأتي.

«انما صدق القائل: ليس الخبر كالعيان، لأن العيان ادراك عين الناظر عين المنظور اليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله. ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر، لقصورهما على الوجود الذي لا تتعداه آفات الزمان... فمن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه، فيعظم بني جنسه ويزري بخلاف جنسه. وان كلا هذين من دواعي الشهرة والغضب المذمومين. ومن مخبر عن كذب في طبقة يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر، وهو مقارب للأول. ومن مخبر عن شيء متقربا الى خير بدناءة الطبع أو متقيا لشر من فشل أو فزع. ومن مخبر عن شيء طباعا كأنه محمول عليه، غير متمكن من غيره، ولذلك من دواعي الشرارة وخبث مخابىء الطبيعة. ومن مخبر عن شيء جهلا، وهو المقلد للمخبرين... وليس الكتاب هذا حجاجا وجدلا حتى استعمل فيه بابراز الخصوم ومناقشة الزائغ منهم عن الحق، وانما هو كتاب حكاية فأورد كلام الهنود على وجهه وأضيف اليه ما لليونان من مثله لتعريف المقارنة بينهم. فان فلاسفتهم وان تحروا التحقيق، فانهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم من رموز نحلتهم، وموضعات ناموسهم. ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم الا أن يكون للصوفية أو أحد أصناف النصارى، لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتحاد».

كان البيروني يعرف من اللغات التركية الشرقية والعربية واليونانية والسريانية والسنسكريتية. وقد وصف اللسان أي اللغة والكتابة بقوله «ان اللسان مترجم للسامع عما يريده القائل، فلذلك قصر على رهن الزمان الشبيه بالان. واني كان يتيسر نقل الخبر من ماضي الزمان الى مستأنفه على الألسنة وخاصة عند تطاول الأزمنة، لولا ما أنتجته قوة المنطق في الانسان من ابداع الخط الذي يسري في الأمكنة سريان الرياح ومن الأزمنة الى الأزمنة سريان الأرواح».

أما رأيه في اللغة العربية فقد أوضحه في مقدمة كتابه في الصيدلة اذ قال ان اللغة الوحيدة التي كانت تصلح في زمانه للكتابة في العلم والفلسفة هي اللغة العربية. والرجل كان من أسياد القلم في تلك اللغة. ●





## جزاء العدل

● عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

# التماثيل والدمى المتحركة عند العرب

الحلقة الثانية والأخيرة

د. منى سنجقدار شعراني

**في هذا العصر عصر التقدم التقني، عصر الآلات الميكانيكية الاوتوماتيكية، عصر الرجل الآلي، لابد لنا من كشف النقاب عن قصة التماثيل والدمى المتحركة ومدى مساهمة العرب في تطورها.**

**انها قصة طويلة تربط الماضي بالحاضر وتنبىء بالمستقبل. لقد بدأت مع الانسان وعايشته في جميع مراحل حياته وتطوراته الفكرية والصناعية حتى اصبحت وكأنها الحلم الوحيد الذي يراود مخيلته والذي يصبو دائما لتحقيقه معتقدا بانه اذا ما استطاع تقليد نفسه كشف عن سر وجوده ومظاهر حياته.**

والجدير بالذكر، أن هذا الفن بقي مندثرا مدة طويلة ولم تظهر أية مخطوطة عربية أو غربية، خلال الفترة الواقعة ما بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر الميلادي، اهتمت به أو حتى أتت على ذكره. لكنه ما لبث أن برز في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي عالم عربي أعاد مجد أجداده واشتهر بصناعة الأجهزة والآلات. انه بديع الزمان أبو العز اسماعيل الرزار الجزري.

## نبذة عن حياته

ان كل ما نعرفه عن حياة هذا العالم الجليل، ما كتبه هو عن نفسه في مقدمة كتابه «الهيئة والاشكال» ــ مصور ــ وقد الف هذا السفر الثمين، وهو في خدمة نصير الدين الارطوقي ملك ديار بكر، حيث مكث نحو ٢٥ سنة في خدمة الاسرة المالكة. واول عهده بالخدمة سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م ــ ١١٨٢م). وأتم تأليف كتابه خلال الفترة الممتدة بين عام ١٢٠٤ و ١٢٠٦م.

وكان الأرطوقيون من اصل تركماني، انحدر من ارطوق قائد جيوش ملك شاه السلجوقي. ولقد زار ابن الرزار الجزيرة (التي اشتق منها اسم الجزري) سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) وذكر انها تميزت انئذ بالامن والسلام على الرغم مما كان يتعرض له المسافرون من اخطار بسبب غارات الاكراد.

يقول ابن الرزار انه درس كتب من سبقوه، ومن عاصروه، خصوصا اولئك الذين نبغوا في صناعة الآلات المائية والمتحركة. وبعد ان عكف طويلا على الدراسة والبحث انتقل الى مرحلة الكتابة والتأليف من اجل الوصول الى الحقيقة.

## اهم مؤلفاته

اهم ما خلفه الرزار هو السفر الضخم المعروف باسم كتاب «الهيئة والاشكال» وهو يضم ثلاثة مجلدات ضخمة، منها نسخ في اوكسفورد وليدن واقدم نسخة هي من محفوظات مكتبة توب كابي باسطنبول تحت رقم ٣٤٧٢ ومقاساتها ٣٣سم طولا ٢٥سم عرضا ومن ٤ الى ٥سم سمكا، ويحوي المخطوط على

٣٥٦ صفحة وهو كامل النص والالواح.

ويعرف هذا السفر الضخم ايضا بكتاب «الحيل الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل».

لقد كتب ابن الرزاز كتابه بحس مرهف وادراك تام لما وضع، حريصا في تفصيل كل دقة، امينا في نسب ما ذكره من مادة علمية، وتجربة عملية لغيره كما لنفسه. واضافة الى ثروته العلمية كان صاحب فن رفيع في الرسم والتعبير عن افكاره.

اهتم الجزري اهتماما بالغا بالتماثيل والدمى المتحركة حتى انه لا يخلو جهاز او آلة من دمية او تمثال. وقد تقدم كثيرا في هذا المجال، وانه لم يقتصر، كما فعل اسلافه ابناء موسى بن شاكر، على وصف الأباريق والجرار والحيل التي تحتويها بل ركز على الدمية المتحركة التي تستعمل تلك الابنية واظهر بحركتها فنا رفيعا معتمدا على الاسس العلمية والتجربة الحقيقية.

لقد صمم في كتابه انواعا عديدة من الآلات والاجهزة ذات الاهمية القصوى كما ركز ايضا على صنع الساعات المائية التي اشتهر بها. ولم تخل ساعة من ساعاته من تمثال او دمية تتحرك بصورة منتظمة في الوقت المناسب.

فيما يلي بعض فقرات من كلامه.

«... ان الملك الصالح، ضاعف الله صلاحه، كره ان يصب على يديه خادم او جارية ماء ليتوضأ به،واحب ان اصنع له آنية ينصب منها على يديه ماء ليتوضأ به، فعملت له ابريقا كبير الشكل، لطيف الصنعة، وله بلبلة مرتفعة الى فوق، ومعطوفة الى اسفل، وطرفها مصوب بقارب موازاة الافق. عند الحاجة اليه، يحضر الخادم ويضعه الى جانب الطشت، على كرسي لطيف، ليرفعه عن الارض وينفصل عنه فيصفر طائر على غطاء الابريق هنيهة ما ثم يبتدىء الماء ويجري في بلبلة فيتوضأ...».

ويقول في حديثه ايضا عن الدمى المتحركة:

«... هو غلام كابن عشر سنين قائم على قدميه، وملبوسه فرجية مقصرة وتحتها قباء، وعلى رأسه قلنسوة، وفي يده اليمنى قدح من زجاج، واصابعه مستديرة حول اسفل القدح مرتفعات الى فوق يسيرا، ويده اليسرى على هذا الوضع، بل ارفع من القدح، وفي كفه سمكة من فضة، رأسها مرتفع عن القدح نحوا من اربع اصابع، وذنبها منحط، وهو قائم الى جنب الملك حتى يمضي من الزمان نحو من ثمن ساعة، فيميل رأس السمكة حتى يقارب القدح، وينصب من فيها شراب مروق الى القدح حتى يكاد يمتلىء...».

وهكذا فان المخطوط كتب بلغة واضحة وعبارات لا تخلو من التعقيد، لكنها تسهل لمن اعتاد دراستها وترجم عمليا ما تحويه من نظريات علمية.

لكي نرى عن كثب اهمية المخطوط لا بد لنا من دراسة بعض النماذج.

## النموذج الاول

غلام يتقدم من سيده بعد الطعام ليصب له الماء (الشكل رقم (٢٢)) يمثل هذا الشكل صورة غلام يحمل بيده اليمنى ابريقا مليئا بالماء يقف على غطائه عصفور. اما في اليد اليسرى فانه يحمل منشفة.

الشكل رقم (٢٢)



## كيف يعمل الغلام

عندما نشد الزر المركز في اعلى ظهره تتحرك يده اليمنى قليلا الى اسفل وينصب الماء من الابريق بينما يغرد العصفور في نفس الوقت ويسمع له زقزقة لطيفة. وما ان يفرغ الماء حتى يحني الغلام يده اليسرى ليقدم المنشفة لسيده.

## النموذج الثاني

فتاة تخرج من صومعتها في وقت محدد لتقدم الخمرة ومنشفة. الشكل رقم (٢٣).

ان هذا النموذج يمثل صورة فتاة داخل صومعة بارتفاع سبعة اقدام. يعلو تلك الصومعة وعاء مليء بالخمر التي تجري نقطة نقطة الى وعاء اخر ركز على رافعة صغيرة فاذا ما امتلأ هذا الوعاء صب الخمر في القدح الذي تحمله الفتاة بيدها اليمنى. فاذا ما امتلأ القدح تثقل اليد اليمنى فتفلت من الرافعة التي تثبت جسم الفتاة. عندئذ تنزلق الفتاة على الدواليب وتتقدم من الملك لتقدم له الخمر فاذا ما فرغ القدح انحنت اليد اليسرى لتقدم المنشفة.

## النموذج الثالث

غلام يشرب ما تبقى من الخمر في القدح. انها نموذج لغلام يجلس القرفصاء ويرتدي جبة يشبه طفلا ابن خمسة اعوام. يحمل بيده اليمنى قدحا وبيده اليسرى زهرة. عندما يشرب الملك الخمرة يفرغ الساقي ما تبقى في قدح الغلام، ينساب الخمر من يد الغلام الى داخل جسمه فتتحرك اليد الى اعلى وتقرب من فم الغلام ويظهر للناظر وكأنه شرب الخمر ثم تعود الى مكانها بفعل وزنها. وبعد تكرار العملية عدة مرات يمتلىء الوعاء الموجود داخل جوف الغلام فيثقل هذا الوعاء ويتحرك الى اسفل فيحرر بذلك اليد اليسرى لتقدم الزهرة الى احد الضيوف. يطلب الملك من الضيف ان يحتضن الغلام فاذا ما فعل صب الملك الخمرة في القدح بكمية كافية عند ذلك تعمل المضخة الموجودة داخل التمثال فتنصب الخمر على الضيف.

الشكل رقم (٢٣)



الشكل رقم (٢٤)



## النموذج الرابع

خيال يعين الشخص الذي يجب ان يشرب كأس الخمر. الشكل رقم (٢٥/أ ب و ج).

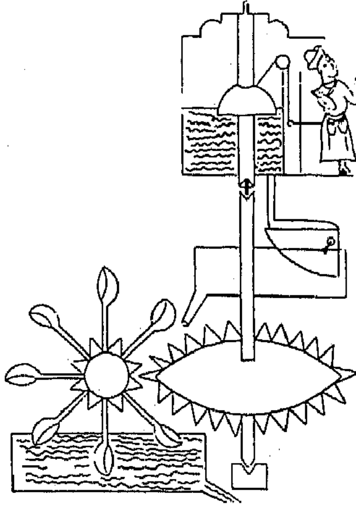
على قاعدة طولها من قدمين الى ثلاث اقدام تجلس امرأة تحمل بيدها قنينةوأمامهاوعاء سعة ليتر تقريبا. فوق رأسها على قاعدة اخرى اصطف اربعة موسيقيين او موسيقيات احداهن تعزف على المزمار والثانية على الدف، الثالثة على العود، والرابعة على الطبل. وفي مكان أرفع وقف راقص واخيرا في الاعلى ثبت خيال على صهوة جواده.

### كيفية عمل تلك الحيلة

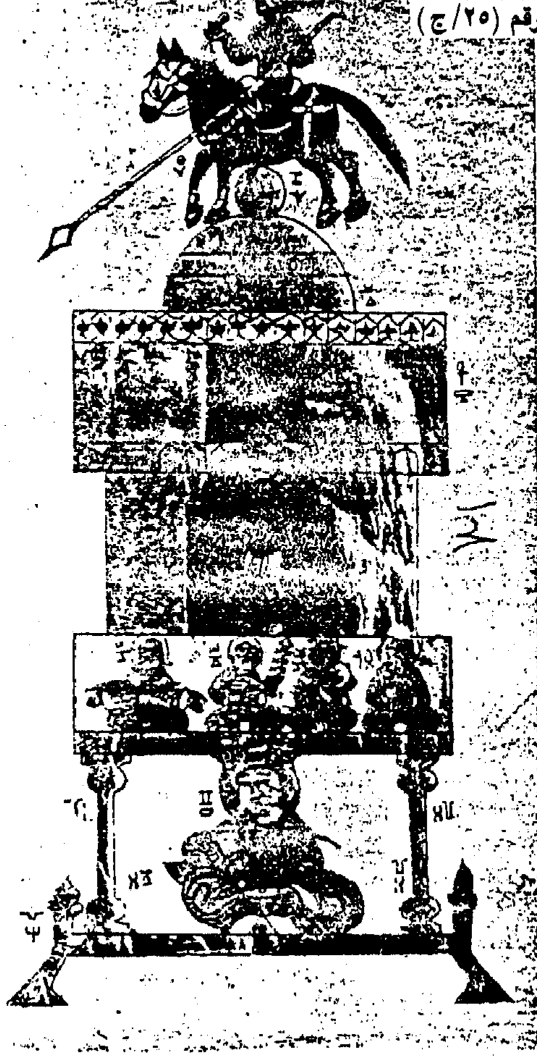
الشكل رقم (٢٥/ب)

تحت الخيال يوجد وعاء كبير فيه كمية من

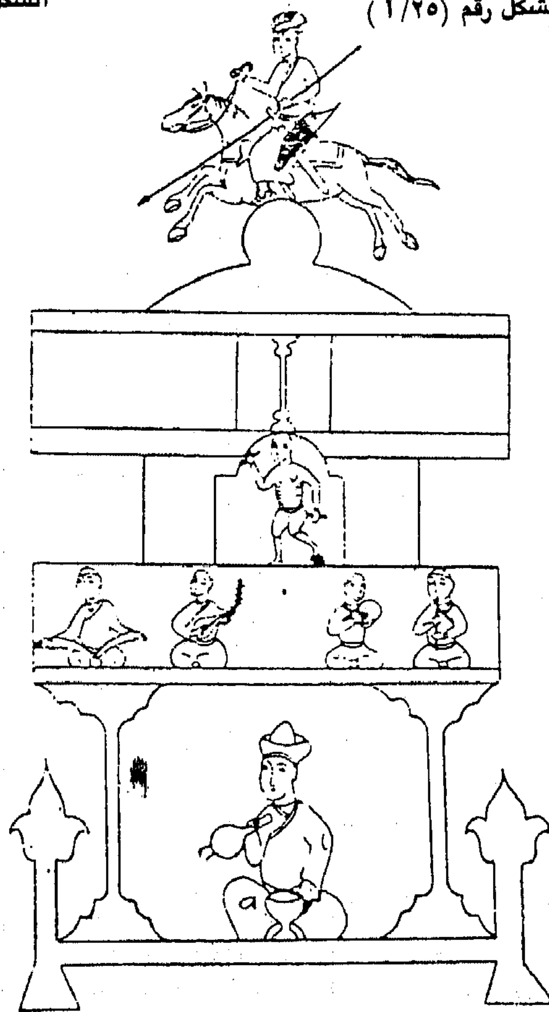
الشكل رقم (٢٥/ب)



الشكل رقم (٢٥/ج)



الشكل رقم (٢٥/أ)



الخمر وله ثقب يسمح بانسياب السائل الى وعاء اخر ركز خلف الراقص. هـذا الاخير يتحـرك بواسطة حبل يرتبط بفواشة. ثم تنصب الخمر في وعاء صغير يتحرك حول محور ثابت فينفرغ كل عشرين دقيقة على دولاب ذي جيوب صغيرة. يدور هذا الدولاب وبفعل دورانه يدور العامود الافقي الذي ثبت عليه الخيال وحصانه والذي بدوره يعطي الحركة للموسيقيين. في نفس الوقت، ينساب السائل الى الاناء الذي تحمله الامرأة فينحني الاناء بفعل ثقل الخمر وينصب منـه السائل في الوعاء الموجود امامها. عند ذلك على الضيف الذي يشير اليه الخيال ان يفرغ الوعاء.

لقد اضفى الرزار على حيلته جو الفكاهة والمرح مع مقدرة مذهلة في الاتقان والدقة فظهرت بذلك براعته الميكانيكية وذوقه الرفيع في هذا المضمار. لكن عبقريته الفذة في هذا الميـدان تجلت في تماثيله المتحركة التي ركبها على ساعاته المائية بعد ان اعطى تلك الساعات اسماء التماثيل التي تحركها. لقد اسمى الساعـة المائيـة (فنكان) ووصف في مخطوطته فنكان الطبالين، فنكـان الفيل، فنكان السياف فنكان الكاتب وغيرها.

اننـا نقتصر في دراستنا هـذه على فنكـان الطبـالين لكي نظهـر المبـادىء العلميـة التي اعتمدها الجزري لتحريك تماثيله ونقف على مدى تطور هذا الفن على يديه. اما دراسة انسياب الزمن وضبط الوقت من خلال ساعات الجزري فهي موضوع بحث اخر بعيد عن دراستنا هذه.

## فنكان الطبالين

يعرف منه مضي ساعات زمانية وينقسم الى فصول خمسة:

**الفصـل الاول**: في صفـة ظاهـر الصـورة ومعناها.

**الفصل الثاني**: في كيفية عمل آلات الماء وعمل كفة تمتلىء وتتفرغ في كل ساعة.

**الفصل الثالث**: عمل العجلة والقماط لستر جامات الواجهة.

**الفصل الرابع**: في كيفية عمل الرجـال في الابواب الاثني عشر.

**الفصل الخامس**: في كيفية عمل الوسـايط المحركة لايدي الطبالين والصناج والة يخرج منها صوت البواقين.

اننا نقتصر على توضيح الفصل الخامس الذي يتعلق بالدمى المتحركة. ونعرض الفصل الاول الذي يتعلق بوصف الساعة الخارجي.

## الفصل الاول

**المظهر الخارجي، راجع الشكل رقم (٢٦).**

تشبه هذه الساعة بيتا يرتفـع عن الارض حوالي ٣,٣م ويظهر في اعلاه نصف دائرة تعرض ستة بروج في آن واحد من مجموع اثني عشر بـرجا واسفـل دائرة البـروج ــ ضمن دائرة متحدة المركز ــ يوجد قرص من ذهب يمثـل الشمس واخر يمثل القمر ــ معمول من زجاج ــ على دائرة اخرى تلي الدائرة التي يتحرك فيها قرص الشمس. واسفل دائرة البروج يوجد اثنا عشر بابا لكل باب مصراعان اسفلها اثنا عشر بابا قوامها مصراع واحد تشكل افريزا يتحرك على بدايته قرص حركة افقية... واسفل الافريز والى الجانبين توجد حنية تشبه المحراب فيها طائر باسط جناحيه واقف على رجليه وامامـه قنديل. وبين هاتين الحنيتين توجد اثنتا عشرة فتحة دائرية الشكل مغطاة بالزجاج ومرتبة على شكل نصف دائرة محدبها الى اعلى تظهر فيها اقمار ليلا. ويلي تلك الدائرة باب كبير من الخشب او الصفر طوله ١,٨ وعرضه متر واحد، واسفل الباب صور طبالين وبواقين وصناج.

## كيفية عمل الاجزاء

فالقرص الذي يتحرك في الافريز حركة خفيفة منتظمة حينما يكون في المسافة الكائنة بين بابين يعمل على قلب احد الابواب المجاورة للقرص بحركة محورية وعلى وجه اخر ملون بلون مختلف عن سابقه. وكذلك تحدث في صف الابواب العليا حركة تعمل على فتح باب يعلو الباب المنقلب في الاسفل، ثم يخرج من بين مصراعي الباب الأعلى شخص يتطلع الى الامام. وفي اثناء تلك الحركة ينقض الطائران حتى يقاربا القنديلين ويطرحان من منقاريهما كرتين الى القنديلين فينشأ عن ذلك صوت يسمع من بعيد، ثم يعود الطائران الى مقامهما. وعندما تعلن الساعة السادسة يطبل

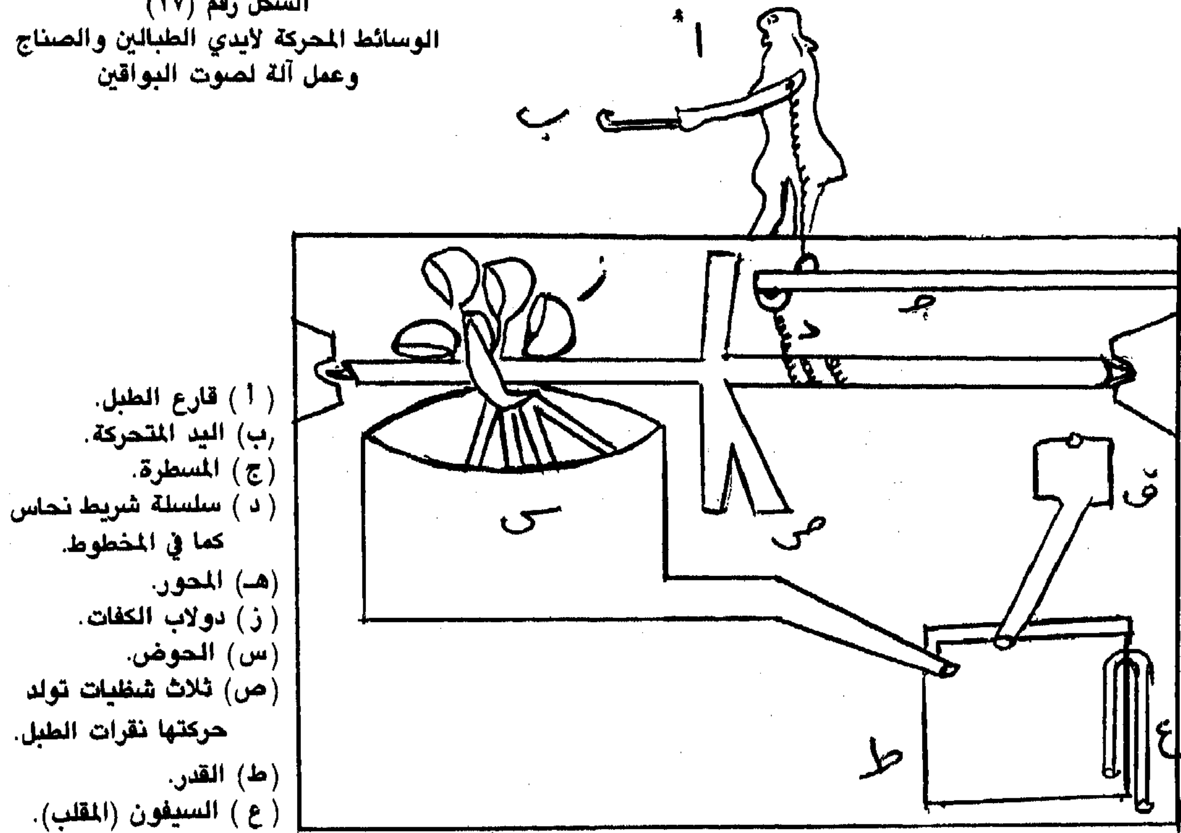


الشكل رقم (٢٦)
ساعة الطبالين (للجزري) ــ الشكل الخارجي

الطبالون ويبوق البواقون ويلعب الصناج بالصنج لفترة من الزمن، ويتكرر ذلك في الساعة التاسعة والساعة الثانية عشرة. اما بالنسبة الى حركة الشمس فيتم ضبطها على القرص بحيث يكون ظهورها في خط شروق وغروب الساعة متفقا مع شروقها وغروبها الحقيقيين، أي تكون الشمس في الساعة على نفس الدرجات التي تكون عليها الشمس حقيقة لذلك اليوم، اما بالنسبة للقمر، في الساعة فيتم ضبطه بحيث يرى في برجه ودرجاته لتلك الليلة، في الدائرة التي تلي دائرة تحرك الشمس. اما الجامات الاثنتا عشرة الموزعة في نصف دائرة محدبها الى اعلى، فتمتلىء ضوءا الواحدة تلو الأخرى بعد مضي الساعات حتى انقضاء ساعات الليل.

## الفصل الخامس

عمل الاجْزاء المحركة لايدي الطبالين والصناج وصوت البواقين (الشكل رقم (٢٧)) يتخذ من النحاس محور مجوف طوله بعد ما بين يد الصناج وايدي الطبالة واطول من ذلك بنصف شبر ويعمل قريبا من طرفه دولاب ذوكفات كالمغارف متى سال عليهن شيء من الماء دار الدولاب. ويتخذ قاعدتين ثابتتين تحت طرفي المحور حتى اذا ركب عليها المحور كان موازيا لايدي الطبالين ويد الصناج والدولاب خارج من اطراف مرافقهم بازاء كل يد شظية متى دار الدولاب كبست الشظية فاصل مرفق يد الطبال




**الشكل رقم (٢٧)**
**الوسائط المحركة لأيدي الطبالين والصناج**
**وعمل آلة لصوت البواقين**

**( أ ) قارع الطبل.**
**(ب) اليد المتحركة.**
**(ج) المسطرة.**
**( د ) سلسلة شريط نحاس كما في المخطوط.**
**(هـ) المحور.**
**( ز ) دولاب الكفات.**
**(س) الحوض.**
**(ص) ثلاث شظيات تولد حركتها نقرات الطبل.**
**(ط) القدر.**
**( ع ) السيفون (المقلب).**

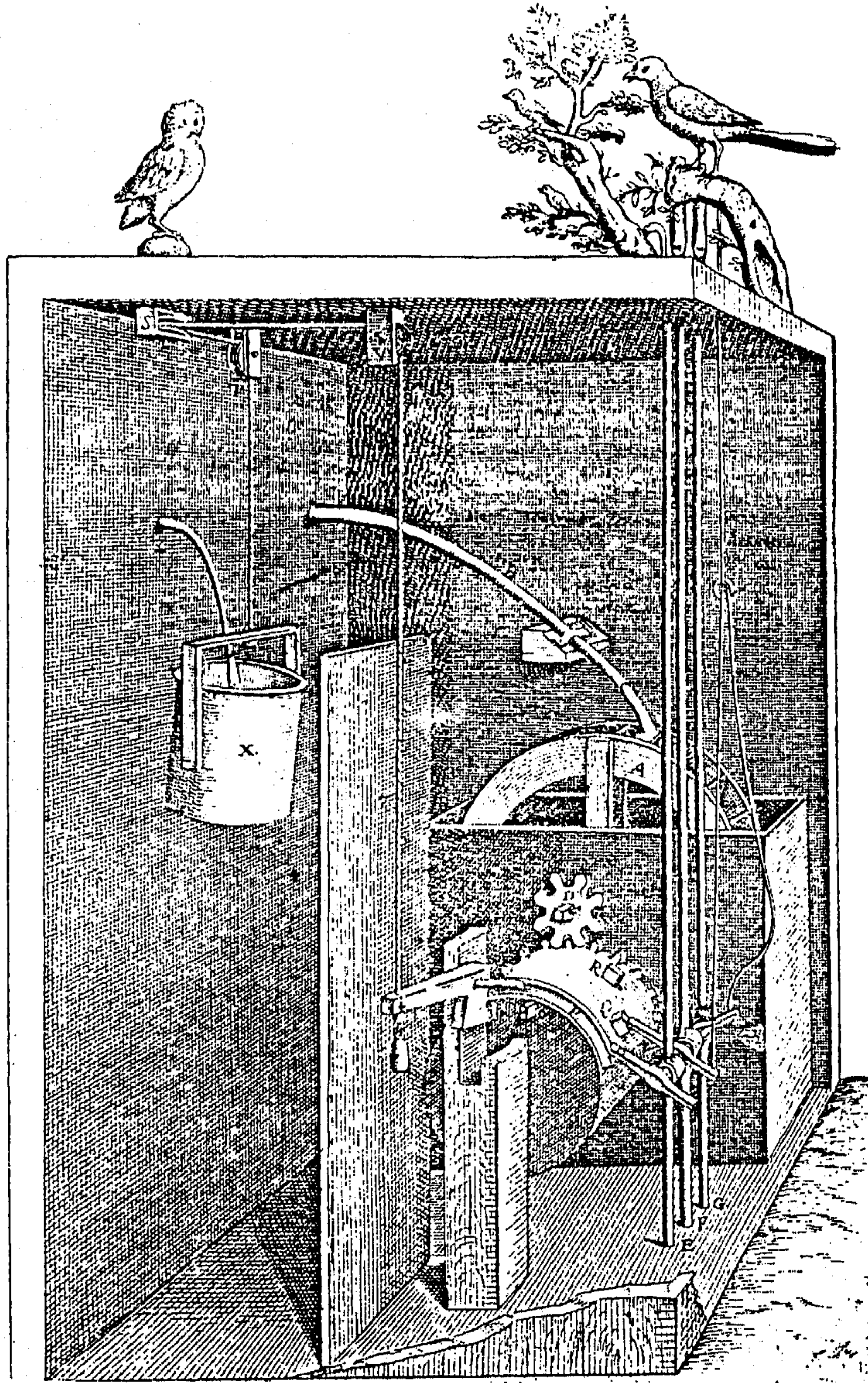
ثم تنفصل عن المرفق وقد تحركت اليد صاعدا عن الطبل ونازلة عليه وكذلك الصنج وليكن لليد اليمنى من الطبال شظيتان ولليسرى شظية واحدة لتختلف النقرات ويصح الايقاع وللصناج ثلاث شظيات اثنتان منهن متقاربتان. ثم تتخذ تحت الدولاب حوضا من نحاس مرتفعا عن الارض الى قريب من كفات الدولاب على قاعدة ثابتة ليكون ما ينصب على كفات الدولاب من الماء واقعا الى بعيد الحوض ثم يتخذ قدرا من نحاس ارتفاعها بقدر ارتفاع القاعدة التي تحت الحوض واستدارتها بقدر ما تسع من الماء الذي يخرج من الجذعة في مدة (ح)[٥] ساعات او السرطان ثم يتخذ انبوبا من نحاس دقيقا طوله ضعف ارتفاع هذا القدر ويحني هذا الانبوب من وسطه حتى تكاد تلتقي الطرفان منه وليكن احد طرفيه اطول من الاخر نحو نصف عقد واسمه مقلب... الخ.

نكتفي بهذا القدر من الفصل الخامس لاننا استطعنا الوقوف على كيفية تحريك يد الطبال، وذلك يتم على النحو التالي: (راجع الشكل رقم (٢٧) ).

يعلق بالمسطرة (ج) وفي الحلقة السفلى سلسلة تثبت بالمحور(هـ) واخرى بالحلقة العليا وتصل السلسلة الأخيرة عبر قدم الطبال الى يده. عندما تكبس الشظية (ص) طرف المسطرة تشد السلسلة النحاسية العالقة بيد الطبال فترفعها الى اعلى واذا ما جازت تلك الشظية اعيدت المسطرة الى مركزها الرئيسي وكذلك اليد التي تقرع على الطبل. اما الشظايا فانها مثبتة بمحور الدولاب. وتدور بفعل دورانه. اما سبب وجود الشظيتين المتقاربتين فذلك لتعجيل عملية القرع ولكي يكون هناك تفاوت في نقر الطبل. وبنفس الاسلوب تعمل شظايا لتحريك ايدي الطبالين الاخرين والصناج.

يتضح مما تقدم، ان الجزري استعمل الشظايا والمساطر لتحريك اطراف تماثيله وهذه الاداة ليست بالجديدة عند العرب فقد اعتنى بها ابناء موسى بن شاكر من قبله. لكن الفضل الاكبر

الشكل رقم (٢٨)
البربخ ذات الشظايا لتحريك العصافير عند (Causs)



والاهمية العظمى لمخطوطة الجزري في احياء فن الدمى المتحركة بأسلوب متقن وحياة مرحة وجذابة. فكلما طالعت حيلة من حيله تشغف لمعرفة المزيد منها. وهناك ناحية اخرى بالغة الاهمية في هذا المخطوط لم يسبق لعالم عربي ان عالجها من جميع جوانبها قبل الجزري الا وهي قياس الوقت بدقة متناهية.

ان ساعات الجزري المفصلة احسن تفصيل في هذه المخطوطات تعتبر الركن الاساسي لقياس الوقت وقد كان لها الاثر الاكبر في تطور آلات قياس الزمن. ولنا عودة لهذا الموضوع في بحث اخر ان شاء الله.

## اثر التطور الذي احرزه العرب في علم الحيل الميكانيكية في البلاد الاوروبية

لقد سبق وذكرنا ان ابناء موسى بن شاكر اول من طور علم الحيل باستعمالهم البربخ ذا الشظايا لتحريك اعضاء ومفاصل تماثيلهم كما انهم استعملوه لاداء نغمة موسيقية منتظمة فاعطوا بذلك الاسس العلمية التي تعتمد عليها الموسيقى الميكانيكية في عصرنا الحاضر. لكن فن الدمى والتماثيل المتحركة والموسيقى الميكانيكية بقي محصورا في مخطوطات ابناء موسى ولم يحظ بالاهتمام من قبل علماء اخرين بل اهمل اهمالا كبيرا واندثر فترة طويلة من الزمن ما بين القرن التاسع والثاني عشر الميلادي. ومما يلفت الانتباه ان المؤرخين لم يذكروا اسم اي عالم عربي او غربي او عنوان مخطوطة اهتمت بهذا العلم او اشارة اليه في تلك الفترة. حتى جاء ابن الرزار في اواخر القرن الثاني عشر وكتب مخطوطته الآنفة الذكر. ثم ما لبث هذا الفن ان اندثر من جديد ولم يحظ بعالم عربي او غربي يهتم به خلال الفترة الواقعة ما بين القرن الثاني عشر والسادس عشر الميلادي. لكن اثره ظهر في الغرب وبالتحديد على يد العالم الفرنسي (Sala-mon de Causs) (١٥٧٦م ـ ١٦٢٦). لقد صمم (Causs) ارغنا مائيا واعتمد في تركيبه على البربخ الموسيقي (Cylindre musical) او البربخ ذي الشظايا (Cylindre pointé). كما اعتمد نفس المبادىء العلمية لتحريك العصافير المركبة على الارغن. وهنا لا بد لنا من الوقوف على جملة وردت في الموسوعة الفرنسية الكبيرة (La grande Encyclopédie Larousse) ما معناه بأن (Causs) اول من فكر في تصميم البربخ الموسيقي ولم يسبقه لذلك اي عالم اخر. لكن المخطوطات العربية برهنت عكس ذلك ويعتبر العرب مصممي هذا البربخ وهم بحق واضعو اسس الموسيقى الميكانيكية وان الفضل الاول والاخير يعود اليهم في هذا المجال كما هو الحال في عدة علوم اخرى.

●

### الهوامش

(٥) هكذا وردت في المخطوط.


### المراجع العربية

- ماجد عبد الله شمس: مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية.
- الموسوعة العربية المعرفة.

### المراجع الاجنبية

- Causs Salamon, Les raisons des forces mouvantes avec des machines tant utiles que plaisantes, Paris 1624.
- Chapuis' Alfred, Histoire de la boite a musique et de la musique mécanique. Seriptar Lauzanne 1955.
- Chapuis A et Droz, Les automates, 1949.
- Devaux P Automates, Automatisme Automation, P.U.F. (Coll que Sais-je) 1967.
- Prasteau J les automates Grund 1968.
- Prou Victor Les théatres d'automates en grèce.
- Usher ABBOH, Paysan A history of mechanical inventions, Harvard university press. revised édition, 1962.


● الحكمة القائلة «إن في العجلة الندامة وفي التأني السلامة».. لم تعد تنفعنا في أفريقيا!

(كليمنت آتلي)

معهد الإنماء العربي

# شكيب أرسلان

## مقدمات الفكر السياسي

د. محمد شفيق شيّا

كتاب الفكر العربي ٤

# جذور التفكير بالحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام

د. حسين سلمان سليمان


ماريا تريزا.

منذ القرن الثامن عشر انتشرت في اوروبا مذكرات الرحالة الاوروبيين الذين زاروا المشرق. وكانت كلها تحث على ضرورة الاهتمام به. وتضمنت ابحاثا عن اهمية الطرق بين البحر المتوسط والبحر الاحمر، وبين المرافىء اللبنانية والخليج العربي عبر سوريا والعراق. وعن امكانية فتح قناة تربط البحر الاحمر بالبحر المتوسط.

وفي سنة ١٧٠٤ تبنت ملكة فرنسا ماريا تيريزا[١]، دراسة احتلال مصر وحفر ترعة تصل البحر الاحمر بالمتوسط، وأرسلت معتمدا سياسيا الى القاهرة لدراسة وسائل تنفيذ هذا المشروع.

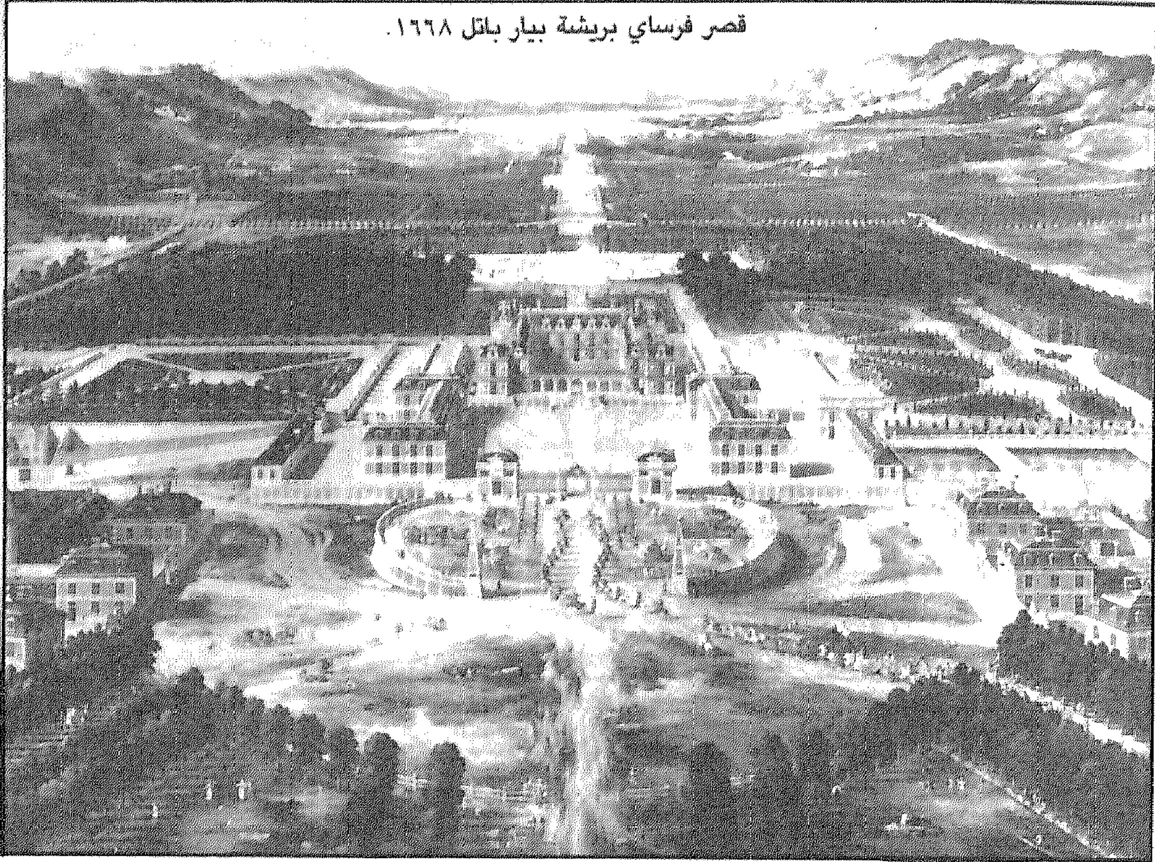
فأثار ذلك قلق بريطانيا، لكن سفيرها في الاستانة تمكن من رشوة أرباب الامر العثمانيين، بمبلغ ستمائة ليرة ذهبية، لطرد هذا القنصل من مصر. ولم تكتف بريطانيا بهذا التدبير بل تطلعت الى احتلال مصر، لتعوض بها عن خسارة مستعمراتها الاميركية، كما ان نجاحها بذلك يساعدها ان تصل بين ممتلكاتها وتجارتها في الهند وبين اوروبا، بسلسلة مترابطة الحلقات من المستعمرات. وسعت الى اخراج هذه السياسة من حيز التفكير الى ميدان التنفيذ، فأرسلت عددا من المهندسين والجغرافيين لوصف سواحل مصر ووضع خرائط عنها وعن ضواحي مدنها.

ولم يكن الفكر الفرنسي بعيدا عن هذه التطلعات، فنتيجة للاضطراب الذي ساد بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وما ترتب على ذلك من تدني حجم التجارة الفرنسية في تلك البلاد، ومن أجل الوصول الى الامان في الاساكل السورية.

اقترح القنصل الفرنسي في صيدا (توليز) في ٢٨ حزيران (يونيه) سنة ١٧٧٤ على وزير البحرية (الكونت ده برويير) بان مصلحة فرنسا تقضي بأن تتعاون مع الباب العالي[٢] العثماني لاعادة مناطق الاضطراب الى الحكم العثماني المباشر، وسوف يؤدي ذلك الى مساعدة الفرنسيين على استعادة المكانة التي كانت لهم في المشرق، وسوف تحقق تجارتهم فوائد عظمى، وسوف يرى السكان وحكامهم بان للطائفة الفرنسية سيدا مستعدا دائما لحمايتها والانتقام لها[٣].

وفي سنة ١٧٧٦ كلف الملك الفرنسي لويس الرابع عشر الجنرال (ده توت) تحت شعار مفتش قنصليات فرنسا في المشرق، لكي يقوم بدرس امكانية حملة فرنسية، ووضع سطح للطرق

(*) مدرس التاريخ الحديث في جامعة بيروت العربية.


قصر فرساي بريشة بيار باتل ١٦٦٨.

السالكة خلال قناة السويس. ورافق الاخير في هذه الرحلة (باراديس)، الذي كان قد امضى سنوات طويلة في القنصلية الفرنسية في صيدا، وكتب الاخير تقريرا جاء فيه ان احتلال فرنسا للساحل السوري، سوف يلقى ترحيبا من الدروز والموارنة، الذين سينضمون مع امير جبل الدروز[٤] الى الفرنسيين[٥].

**«سوف يمدنا هؤلاء بفرق فرسان كقوة مساعدة لغزو مصر، مما سوف يمكننا من استعمال ميناء بيروت..»**[٦].

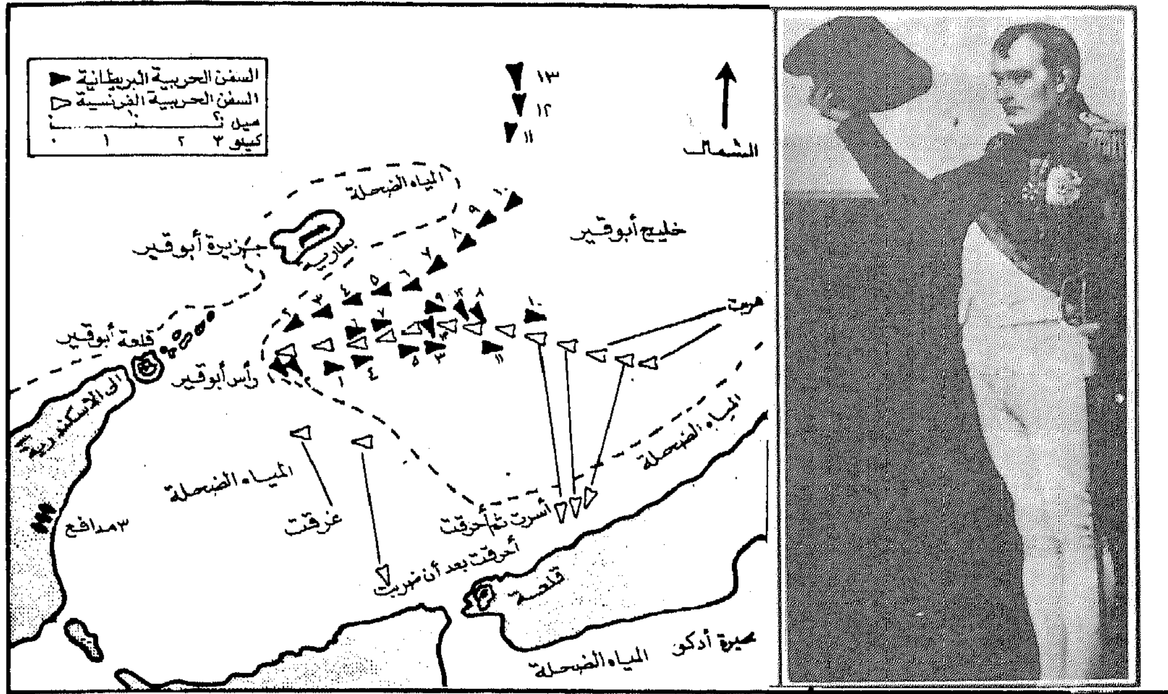
ودعا فرنسا اذا قررت غزو مصر الى محالفة الدروز، لان الروم الارثوذكس سوف يساندون روسيا، كما يكن الدروز والكاثوليك كراهية للاتراك[٧].

وأكد هذه النظرية (مور) القنصل الفرنسي في مصر، قائلا بأن سيطرة جيش فرنسي على مصر يتطلب تأمين الساحل السوري، وان بالامكان جذب والي صيدا أحمد باشا الجزار (١٧٧٦ ـ ١٨٠٤) لصالح الفرنسيين وقلبه على الأتراك[٨].

وتطلع قصر فرساي في السنوات التالية الى الاستفادة من اهمية الطرق التجارية للخليج العربي، فطلب من القنصل الفرنسي في بغداد ان يمده بمعلومات حول هذا الموضوع. فكان جواب الاخير بدعوة حكومته الى احتلال بغداد والتعاون مع الشاه كريم خان الذي يسعى الى استعادة بلاد الرافدين وديار بكر اولا، ومن ثم سوريا وفلسطين حيث سوف يجد مساعدة من طائفة الشيعة في تلك البلاد، وبأن كريم خان لن يلبث ان يتخلى عن سوريا وفلسطين للفرنسيين، فيستثمرون ارضها الخصبة التي سوف تعطي اضعافا مضاعفة، وباستعادة القدس سوف يجذب الملك الفرنسي نحوه ولاء كل المسيحيين، ويكون لذلك الصدى المسر في روما.

كما جاءت افكار مشابهة في مذكرات تعالج مشروع احتلال مصر، ومن اية جهة يمكن للحملة ان تواجه خطرا، وجاء فيها:

«... من سنخشى في مصر؟ الجزار الذي يسعى الى الاستقلال، لن يكون لديه لا الوسائل ولا النية لترك ولاياته سعيا وراء مصالح ضئيلة،




نابليون بونابرت.

معركة ابو قير (١٧٨٩) ـ الخريطة ماخوذة من الموسوعة العسكرية ـ الطبعة الاولى ١٩٧٧، ج١، ص ٢١.

والبحث عن عدو يخشاه للغاية، لن يحاربنا بل سوف يطلب مساعدتنا. وحتى اذا كان لديه نوايا عدوانية، نستطيع ان نجبره البقاء في ولاياته عن طريق احتلال المواقع التابعة له، ونقيم فيها حامية تفشل كل مخططاته، وتمد بالمساعدة الدروز والموارنة الذين يئنون من المظالم النازلة بهم، والتي لا يتحملونها الا على مضض، وهم مستعدون دائما للثورة ومهاجمة الاتراك، ومستاؤون من الجزار الذي اساء معاملتهم في حرب الشيخ ظاهر العمر...»[٩].

وفي ١٤ تموز (يوليو) سنة ١٧٨٩ دك شعب باريس الباستيل، فحد من سلطات الملك وأعلن الغاء نظام الاقطاع، وأعلن أن الملكية رسالة مستمدة من ارادة الامة لا هبة من العناية الالهية، مما أثار عليهم حكومات أوروبا الاوتوقراطية. وشهدت الفترة الممتدة منذ ذلك التاريخ انتفاضات داخلية، وحروبا خارجية مع ملوك اوروبا، وسعيا مستمرا لتوثيق العلاقة مع الباب العالي العثماني، لتأمين الوجود الفرنسي في المتوسط، والاعتراف العثماني بالثورة الفرنسية التي نجحت بالحصول عليه سنة ١٧٩٤[١٠].

وانعكس تأثير ذلك على بريطانيا، فكان رد الفعل بتعزيز قوتها البحرية، وتحريض بكوات مصر لمضايقة التجار الفرنسيين. ودفع هذا السلوك (ماجلان) قنصل فرنسا العام في مصر، الى تحريض حكومته على اقامة مستعمرة في تلك البلاد، وابعاد بريطانيا عن الهند بالقوة، بالغاء تجارتها مع تلك البلاد، كما ورد في احد التقارير معلومات عن مناخ وطوبوغرافية مصر وأفضل الاوقات لغزوها[١١]. لكن رجال الثورة استمروا في سياسة التعاون والتحالف مع الباب العالي.

وبعد احتلال بونابرت لايطاليا جمع من مكتباتها عددا كبيرا من المخطوطات البالغة الاهمية، تتضمن ابحاثا عن المشرق لوحظ ان الهوامش كانت مزودة بملاحظات عن مصر بخط يده. وأشار الضابط (سارجي) بانه احضر له من باريس مذكرات مخطوطة على جانب كبير من الاهمية، ومن ضمنها تقرير (ماجلان) الذي يدعو فيه حكومته الى غزو مصر وتدمير سلطة البكوات المماليك، واعادة سلطة السلطان العثماني بالاسم، وبأن تنفيذ ذلك أمر في غاية الاهمية، لانه يسهل بعدها التوجه من البحر الاحمر لضرب الانجليز في الهند. وهذا فعلا ما كان يدور في خلد بونابرت، ويبرز من خلال رسالة بعث بها

ملحق رقـــــم (١٠)

بونابرت يصرح لسكرتيره بوريبـــن أن باحتلال عكا سوف يستولي على ثروة الجزار
ويقيم امبراطوريه في الشرق ويعود الى باريس عن طريق القسطنطينيه

" Je vois que cette misérable bicoque n'a couté bien de monde et puis bien du temps;.mais les choses sont trop avanceés pour ne pas tenter un dernier effort. Si je reussis comme je le scais je trouverai dans cette ville les trésors du Pacha et des armes pour 300,000 hommes. Je souléve et s'arme toute la Syrie, qu'a tant indigneé la ferocité de Djezzar dont vous avez vu que la population demande à chaque instant la chute à Dieu. Je marche sur Damas et Alep. Je grossi mon armeé en avançons dans le pays de tous les mécontens. J'annonce au peuple l'abolition de la servitude et du gouvernement tyranique de Pachas. J'arrive à Constantinople avec des masses armés; je renverse l'Empire turc, je fonde dans l'orient un nouvel et grand empire qui fixera nos place dans la postérité.et peut être retournai- je 'a Paris par Constantinople et Vienne,après avoir anéantir la maison d'Autrich.

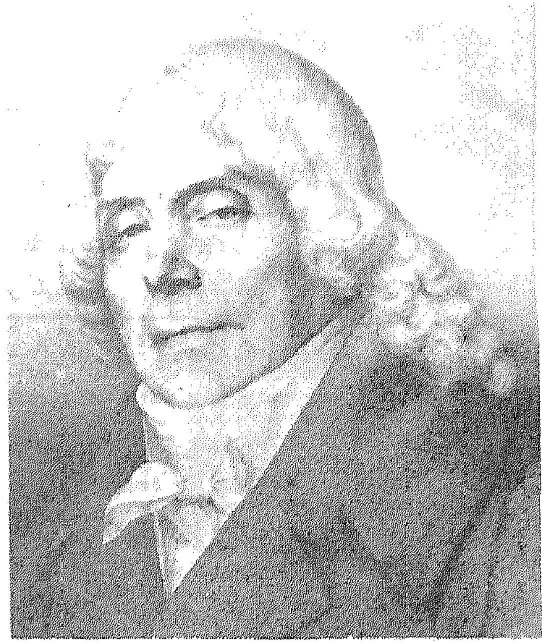
" Si j'avais enlevé S't. Jean d'Acre, j'operais une revolution en orient. Les plus petites circonstances conduisent les plus grands événemens; j'aurais atteint Constantinople et les Indes; j'eusse changé la monde....

' Après la soumission de l'Egypt, il eut en 15,000 hommes à y laisser et 30,000 hommes disponible, il marchait sur l'Euphrote; il avait plusieurs fois dans la journeé l'attention fixé sur les déserts qu'il faut traverser pour arriver en Perse. "

( M.et D.) Turquie t.69

من مجموعة ارشيف وزارة الخارجيه الفرنسيه

□ وثيقة من مجموعة ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية.



**تاليران.**

**من مجموعة د. عادل اسماعيل «الوثائق الدبلوماسية والقنصلية»**

الى حكومة الادارة في ١٦ آب (اغسطس) سنة ١٧٩٨ وجاء بها:

«... **الامبراطورية التركية تنهار يوميا، امتلاك الجزر (أي الأيونية) يؤمن لنا الاحتفاظ بها ما أمكن وننال نصيبنا، ولن يمضي وقت طويل لندرك ان تدمير بريطانيا الحقيقي يكون باحتلالنا لمصر. فالامبراطورية العثمانية تنهار يوميا، وهذا يجبرنا على التفكير لاتخاذ الاجراءات الكفيلة بحفظ تجارتنا في المشرق...**»[١٢].

وبفشل حكومة الادارة الفرنسية[١٣] في عقد معاهدة صلح مع بريطانيا، انهت في ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٧٩٧[١٤] حربها مع النمسا بمعاهدة (كمبو فورميو) التي اعادت حدود فرنسا وحققت لها انتصارا لم يسبق لفرنسا ان حققته في ظل اي نظام، وحققت لبونابرت نفوذا فعالا اثار خشية حكومة الادارة، فسعت لابعاده بحجة قيادة حملة لغزو بريطانيا.

وتظاهر بونابرت بتنفيذ أوامر رؤسائه رغم عدم اقتناعه بها، وتطلع الى التشبه بالاسكندر واحتذاء حذوه باقامة امبراطورية مشرقية، اذ لم تعد اوروبا تستهويه، ويبدو ذلك من خلال الحديث الذي اجراه مع سكرتيره (بوريين) في ٢٩ كانون الثاني (يناير) سنة ١٧٩٨:

«... **لم يعد عندي شيء أقوم به هنا، لم يعد عندي في اوروبا انتصارات يجب ان اذهب الى المشرق، الامجاد العظمى تأتي من هناك. سوف أقوم بنفسي بجولة على الشاطىء (اي المحيط الاطلسي) لاتأكد بنفسي ما يجب القيام به، اذا وجدت اي شك حول انزال بريطاني، في هذه الحالة سوف يكون جيش بريطانيا جيش المشرق...**»[١٥].

وبعد ان تجول بونابرت على شواطىء الاطلسي لمدة ثمانية أيام، أكد لمساعده (بوريين)[١٦] بان الغزو مخاطرة وبأنه سوف يذهب الى القاهرة. فعاد الى باريس وعكف على دراسة التقارير العلمية والعسكرية عن الحملة على مصر، وحدد هدف الحملة امام حكومة الادارة:

١ ــ ضرب التجارة البريطانية في الهند عن طريق البحر الاحمر.

٢ ــ تحويل البحر المتوسط الى بحيرة فرنسية[١٧].

ووقف (تاليران) وزير الخارجية الفرنسية الى جانب اراء بونابرت، وبين لاعضاء حكومة الادارة بأن مصلحة فرنسا تقضي بأن يكون لها مستعمرات غنية وقريبة منها بعد أن فقدت مستعمراتها في اميركا الشمالية وكندا والهند، وبأن الخطر بفقدان جزر الهند الغربية بات وشيكا، وبأن من الضروري تأمين مستعمرات تنتج المواد التي تستوردها فرنسا من تلك الجزر[١٨]. وبعد مناقشات مستفيضة وافق المجلس في الخامس من آذار (مارس) سنة ١٧٩٨ على خطة بونابرت القاضية، بخداع الانجليز بأن هدف الحملة القيام بانزال فرنسي على السواحل البريطانية، فيكثف هؤلاء قواتهم لصد الهجوم المتوقع عليهم، وفي هذا الوقت يحتل الفرنسيون مصر، ويقيمون فيها مستعمرة فرنسية ثم يعود بونابرت لضرب الممتلكات البريطانية في اوروبا[١٩]. وان تسعى الحكومة عند مسير الجيش بارسال سفير الى الاستانة، ليشرح للباب العالي ان احتلال مصر ليس عملا عدائيا ضد تركيا، ولكن ضد المماليك المتمردين على السلطان والمنفذين لاوامر الانجليز[٢٠]. وتم

الاتفاق على عدم افشاء سر وجهة الحملة اثناء التحضير لها. وان يختار بونابرت بنفسه الجنرالات. والضباط والعلماء والمهندسين والجغرافيين الذين سيرافقونه. وعرفت هذه الحملة باسم «جيش بريطانيا» في حين كانت في الواقع «جيش مصر»[٢١].

ولم تكن اوروبا غافلة عما يجري في فرنسا من تحضيرات، فقد كان في كل مكان ظنون، ولم يستطع جواسيس بريطانيا ان ينقلوا اليها سوى التوقعات، ولكنها بالمقابل تلقت تقارير عديدة تشير الى امكانية النزول الفرنسي الى الاسكندرية فأصدرت اوامر الى الاميرال (نلسن) بملاحقة الاسطول الفرنسي، وطلب وزير الحربية اعلام الباب العالي بذلك ومحالفة روسيا، ووضع قوات عند مدخل البحر الاحمر والخليج العربي، لمنع اي اتصال بين القوات الفرنسية والقارة الهندية[٢٢].

وهكذا تحدد مصير شعوب مصر وبلاد الشام، وتم حشد جيش نتيجة الصراع على السلطة بين بونابرت وحكومة الادارة. فقد قرر الاول تأجيل انقلابه السياسي، رغبة في تحقيق هدف عسكري يضعه خارج السلطة العليا. ولكن اذا انتصر فيه لا يعود لنفوذه من حدود، ولندن قريبة جدا من باريس، ولكي يهدد سواحلها يجب البقاء مدة تحت مراقبة حكومة قد تنتقم منه بالسر، كما ان الحملة تخدم مصالحه لان انتصار الابطال كان يرتبط بالشخصية. في حين كانت حكومة الادارة تسعى للتخلص من نفوذ بونابرت المتصاعد، فهي لم تخدع بخيال القائد، فقد كانت الحملة بنظرهم نفقات جنود وأموال ترمى في البعيد، دون نتيجة محتملة وانما تخلصا من القيصر الجديد الذي سيلقى مصيره، وهزيمته سوف تؤدي الى زوال ماله من تأثير على الرأي العام.



**اقطاعي لبناني. الشيخ شاهين تلحوق حبيش. من مجموعة د. عادل اسماعيل «الوثائق الدبلوماسية والقنصلية»**

وهكذا برز التفكير في الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وارتبط مصير البلدين ببعض في نظر الغزاة. فاذا كانت مصر بالنسبة لبونابرت مسرحا لتحقيق امجاده، وضرب الوجود البريطاني في الهند وانعاش التجارة الفرنسية عن طريق جعل ضفاف النيل مستودعا للبضائع الفرنسية. فان نجاحه في تحقيق هذه الاهداف ارتبط بضرورة تأمين حدود مصر الشمالية باحتلال بلاد الشام، وكان قناصلة فرنسا وسفراؤها في المشرق قد اشاعوا بأن تنفيذ ذلك لن يكون شاقا، نظرا لكراهية العصبيات المحلية للحكم العثماني واستعدادها للتعاون مع الفرنسيين.

●

## الهوامش

(١) ابنة فيليب الرابع ملك اسبانيا وزوجة لويس الرابع عشر.

(٢) الباب العالي. كناية عن مبنى كبير الحجم أقيم في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٤٨ ـ ١٦٨٨)، خصص جناح منه ليقيم به الصدر الاعظم مع اسرته وخدمه وحرسه، وخصصت بقية الاجنحة لاجتماعات كبار موظفي الدولة الذين يقومون بتصريف مهامها. وغدا اسم هذا المبنى «باسكي قابيس» اي بوابة الباشا، و«بابي عالي» اي بوابة عليا، ثم اكتسب اسم الشهرة في التاريخ وهو الباب العالي.

(٣) Charles-Roux, F., La politique française en Syrie et en Palestine pp. (18-20).

(٤) جبل الدروز. اطلق جبل الدروز على القسم الجنوبي

من حوران بعد هجرة الدروز اليه، والمقصود هنا المرتفعات الغربية المتدة على طول الساحل اللبناني، من جسر المعاملتين عند نهر الكلب حتى نهر الاولي شمال مدينة صيدا.

(٥) Ibid. p. 33.

(٦) Ibid. p. 33.

(٧) Ibid. p. 33.

(٨) Ibid. p. 34.

(٩) Ibid. p. 34.

(١٠) اميل خوري وعادل اسماعيل. السياسة الدولية في الشرق العربي. ص ٦١.

(١١) Charles-Rouse. op.cit. pp. (27-30).

(١٢) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة (M. et D. Turquie) سجل رقم ٦٣.

(١٣) انشئت حكومة الادارة في ٢٥ حزيران ١٧٩٢، وهي هيأة من خمسة اشخاص تمارس السلطة التنفيذية، انشيء بجانبها مجلسان تشريعيان مجلس الشيوخ ومجلس الخمسمائة يختار اعضاؤهما عن طريق انتخاب محدود النطاق.

(١٤) رغم ان التوقيع على المعاهدة قد تم في باسارينو الواقعة في النمسا، ولكن الاتفاقية حملت اسم قرية كامبوفورميو المجاورة لها، التي اعدوا فيها امر الاحتفال بالتوقيع على المعاهدة، التي نصت على تنازل النمسا عن البلجيك وحدود الراين ولمبارديا واستقلال الرايخ. لمزيد من المعلومات انظر: هـ. ا. ل. فشر: تاريخ اوروبا في العصر الحديث، ص (٤٨ ــ ٤٩)؛ جلال يحيى. تاريخ اوروبا الحديث، ص (٢٧٨ ــ ٢٧٩).

(١٥) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة (M. et D. Turquie) مجلد ٦٣ ورقة رقم ٨٣.

(١٦) Mémoires de M. de Bourienne. V. 1pp. (222-224).

(١٧) Raybaud, Louis (and others)., Histoires scientifique et militaires sur l'expedition française en Egypte. V. 3 p. 78.

(١٨) اميل خوري وعادل اسماعيل. مرجع سابق. ج ١، ص ٧٤.

(١٩) Raybaud., op.cit. V. 3, pp. (32-36); Bourienne., op.cit. v. 3 pp. (223-227).

(٢٠) Ibid., V. 3, p. 32; Bourgeois, E., Manuel historique. pp. (195-196).

(٢١) Ibid. pp. (30-32).

(٢٢) Charles-Roux, F., l'Angleterre et L,'expedition française en Egypte et en Syrie, pp. (7-19).

## المصادر


**اولا ــ وثائق غير منشورة**

ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة:

Mémoires et Documents Turquie (M. et D.).

**ثانيا ــ مذكرات منشورة**

BOURRIENNE, (M. de)., «Mèmoires sur Napoleon, le direction, le Consulat, l'Empire et la Restauration». pub. par Desiré la croix. 3 vols, Paris.

Miot, jaques., «Mémoires pour Servir à l'Histoire des expeditions en Egypte et en Syrie pendant les années VI, VII et VIII de la republique français». paris, 1804.

RAYBAUDS, Louis (and others)., «Mémoires Scientifique et Militaire sur l'expeditions française en Egypte». 10 Vols et 2 Atlas. Paris, (1830-1836).

SARGY, Niello. (J.M. de)., «Mèmoires secrets et inedits pour servir à l'Histoire contemporaire sur L'expedition d'Egypte». Paris, 1825.

**ثالثا ــ دراسات وابحاث**

اميل خوري وعادل اسماعيل.، «السياسة الدولية في الشرق العربي»، ٤ اجزاء، بيروت، ١٩٥٩ ــ ١٩٦٤، ج ٤ لعادل اسماعيل فقط.

Charles-Roux, F., «La politique française en Syrie et en palestine» Marseille, (S.D.).

«l'Angleterre et L'expedition française en Egypte». Le Caire, 1925.




● من الدول الكبرى خرجت من مؤتمر الأقطاب صغيرة!

(منديس فرانس)



اللام ــ ا (لا)، الحرف المزدوج من مخطوطة مغربية، تبين بوضوح ان الخط المنحني هو الأساس في تركيب الكتابة العربية وقد اسبها مظهرا حركيا.

# تطوّر الكتابة العربيّة وارتباطها بالفنّ التشكيلي

عَاطف مُصْطفى

مرت الكتابة العربية بمراحل متعددة، وأنماط متباينة، تعرضت من خلالها للكثير من التغيير لكي تتلاءم مع العصر الذي تعيش فيه.

وقد تطورت الكتابة العربية منذ الفتح الاسلامي بما يتلاءم مع تلك البلدان التي دخلت الاسلام، وكان لا بد من قراءة القرآن قراءة صحيحة لأن اللسان الأعجمي مغاير للسان العربي، لا سيما أن العربي كان يقرأ ويعي لغته بالسليقة والذكاء الفطري دون شكل أو نقط.



كان حذق العرب للكتابة في الجاهلية حادثا هاما في تاريخ الفكر، لم يظهر خطره الا بظهور الاسلام، والحق أن الكتابة خدمت الاسلام خدمة جلى، ذلك أنها كانت بالنسبة له خيرا من السيف.

وقد كان النبي، عليه الصلاة والسلام، يدرك قيمتها ويفهم خطرها، ولذلك فقد جعل يطلق سراح الأسير في «بدر» اذا علم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة. وتعتبر هذه أول مدرسة في الاسلام.

وقد دون بها القرآن أول نزوله. ودونت كتب الحديث والشروح والتفاسير وغدت وسيلة تعليمية بالغة القيمة منذ بدأ تدوين المعارف بالعربية.

وكانت الكتابة العربية في انتشارها غازية قوية التأثير في البلاد المفتوحة يدل على نفاذها وعظم تأثيرها اتخاذها لرسم لغات الأمم المغزوة التي لم تتحول الى لغة الفاتحين.

ففي ايران حلت الحروف العربية محل الحروف الفهلوية في كتابة لغة الفرس مع زيادة حروف معينة، واستخدمها الافغانيون في كتابة لهجاتهم وكذلك البلوخستانيون.

وفي الهند حلت الكتابة العربية محل حروف اللغة الاوردية الهندوستانية ولغة أهل كشمير. وكذلك كتبت بها النصوص الدينية الاسلامية في الصين وفي بلاد كثيرة من تلك التي غزاها المسلمون مبشرين بالدين الاسلامي الحنيف وعلى رأسها بلاد أفريقيا.

واستخدمت الكتابة العربية في تدوين القرآن وكتب الدين في هذه البلاد.

وقد توغل الخط العربي في اسبانيا وجنوب فرنسا حتى بلغ مع فتوحات العرب أقاليم «اللوار».

ومنذ ذلك التاريخ قدر للعربية وكنوزها العلمية أن تبلغ الذروة انتشارا بين الراغبين في العلم من الاوروبيين في اسبانيا والأمم المجاورة ممن كانوا يتزحون الى ديار الأندلس طلبا للعلم في وقت كان العرب فيه يحذقونه ويحتفظون بتراثه. عندئذ تعلم الأوروبيون من محبي العلم لغة العرب وكتابتهم ليقرأوا بها المخطوطات، ويحفظوا بها الآداب العربية من شعر ونثر وزجل.

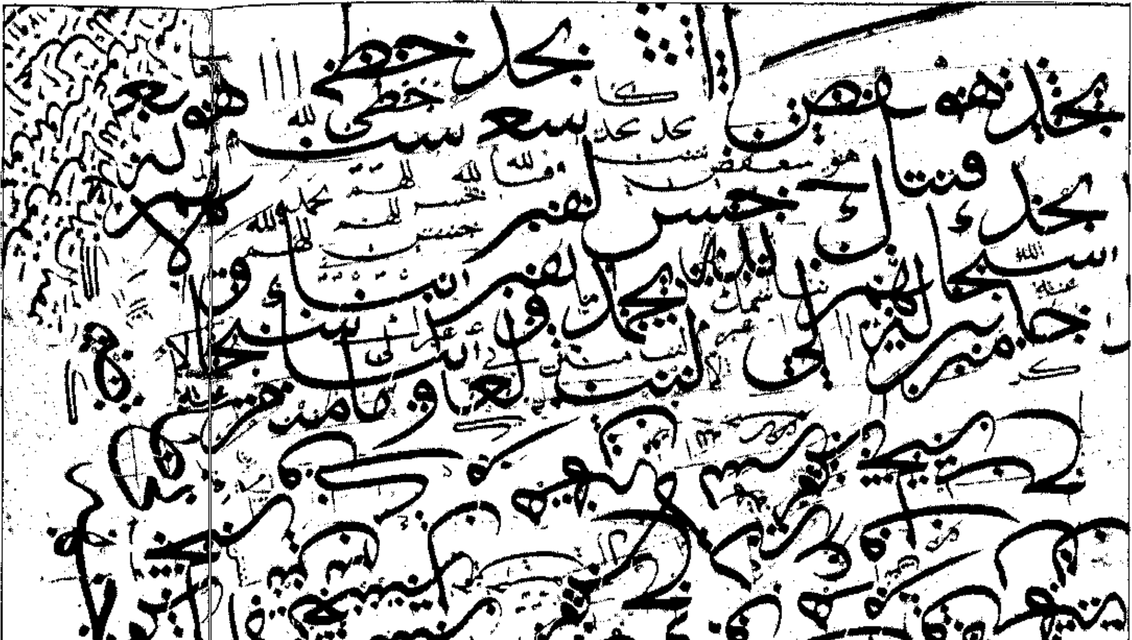
وبلغ من تأثير غزو الحروف العربية أن اتخذها الاسبان والصقليون وكثير من امم أوروبا لزخرفة المباني والعملة.

والكتابة العربية من أغنى الكتابات في العالم ولا يشترك معها في هذا الثراء سوى لغات الهند والصين.

والأسباب التي تدفعنا الى القول عن مفهوم الثراء والغنى في الكتابة العربية هي:

**اولا** — فن الكتابة المصرية القديمة التي عبرت طوال سنين عصر الأسرات من الغرب الى الشرق ماسحة الجزيرة العربية من جنوبها الذي





النقطة، ميزة من ميزات الكتابة العربية، وقد تعدت المرحلة التقليدية الى استعمالها كشكل زخرفي.

كان يتمثل في مملكة سبأ الى اليمن متجهة شمالا الى الحجاز وملتقية في شمالها الشرقي بحضارة البابليين.

**ثانيا** — المنبع المباشر الذي اشتقت منه الكتابة العربية أشكالها النهائية ونوع لهجاتها وهي الكتابة المسمارية والآشورية والبابلية والفينيقية التي تلخصت أخيرا في الكتابات المسمارية والسريانية.

ومن هذين المنبعين نشأت الكتابة العربية. واذا اعتمدنا على صحة هذين المصدرين وجب علينا أن نصف الكتابة العربية باعتبارها فنا للشكل وفنا للنقطة وامتدادها.

وتحديد فن الشكل (Forme) ضروري لأن أحد أمهات الكتابة العربية وهي المصرية القديمة كانت تعمد في أساسها على ترجمة الأشكال المرئية الى معان موازية فالشجرة تعني الفلاحة، ودائرة الشمس تعني الحياة، والخط المتعرج يعني المياه، الى آخر هذه الأشكال.

وقد اعتمدت اللغة المصرية أساسا على تلخيص الأشكال البصرية برسمها رسما بليغا مركزا فوق الحوائط أو على أوراق البردى حتى تنهض بكاملها لغة وكتابة، وليس أدل على ذلك من الكتابات الغائرة والبارزة والمكتوبة بالأحماض والأحبار على الأحجار والمعابد والحوائط والتماثيل والأخشاب والأوراق وغيرها.

وهكذا كانت الكتابة المصرية القديمة فنا فريدا لا يمارسه الا فنان مقتدر، وماله لنواحي التراكيب الفنية في الأشكال التي يرسمها.

## علاقة الخط العربي بالفن التشكيلي

والكتابة العربية فن للنقطة وامتدادها، لأن أحد الأمهات الأخرى للكتابة العربية وهي المسمارية كانت تعتمد في أساسها على النقطة وامتدادها، فقد كانت اللغة المسمارية تتكون من مجموعة مثلثات مقلوبة بحيث تكون القاعدة الى أعلى ورأس المثلث الى أسفل على شكل مستطيل قليلا بحيث تعطينا على نحو ما شكل المسمار.

ومن هذه الحضارات القديمة نشأت الكتابة العربية ونقصد بهذه الحضارات حضارة بابل وآشور وفينيقيا ومصر والكنعانيين.

ونظرا الى هذا النسب العريق للكتابة العربية فقد تميزت بخواص عدة من حيث الكتابة واللهجة، انفردت بها انفرادا مميزا عن لغات وكتابات العالم ومن هذه الميزات:

**اولا** — تتميز اللغة العربية بما يسمى بالتواصل الشكلي وهو ما يعرف في الفن التشكيلي بالدائرة سواء أكانت الدائرة صريحة أم موحية.

ومن المعروف أن الخط المنحني يؤدي في المنظور غير المرئي الى شكل دائري على نحو ما، فاذا استعرضنا مجموعة ا ل أ، ب العربية وجدناها في حقيقتها مجموعة خطوط منحنية أو متعرجة لا تقود في النهاية اذا حاولنا استكمال اطرافها الا الى شكل دائري، فحتى الألف ( ا ) يبدو من الوهلة الأولى خطا مستقيما، الا انه في حقيقة الأمر ليس كذلك، فكتابته الصحيحة تتحلى بشكل تاجي فوق هامة الألف، ومن الممكن احيانا أن يكون هذا التاج مجرد خط اضافي منحن، أو شبه دائرة بل ان كتابة الألف في ذاتها قد تكون على شكل منحن قليلا.

واذا استعرضنا بقية الحروف لأصبح من اليسير علينا ان نتبين كيف أن الخط المنحني هو الأساس في تركيب الكتابة العربية.

ان ذلك يعني أنها كتابة حريصة على أن تتساوى كلية مع مفهوم الاكتمال في الفن أو ما يسمى (Art of Integration).

لأن الدائرة في مفهوم الفن تعني قمة المتوازن وصحة الزوايا والكمال.

**ثانيا** — اننا نجد أن الخط المنحني بشكل ما يمنح التركيب العام لمنظور الكتابة مظهرا حركيا، واستفادت من ذلك الى حد كبير اللغات اللاتينية التي انحدرت منها معظم الكتابات الأوروبية.

**ثالثا** — ان الكتابة العربية تعتمد على النقطة وامتدادها. فالنقطة هي مصدر الخط اذ أن أي خط تحدثه على سطح ليس في الحقيقة الا مجموعة نقط متلاصقة، غير أن النقطة في الكتابة العربية قد تعدت تلك المرحلة التقليدية الى استعمالها كشكل زخرفي.

ولقد أثرت هذه الطريقة في كتابة اللغة العربية في لهجاتها بحيث توازت اللهجة مع ثراء الكتابة. والكلمة الواحدة نستطيع أن نصدر مجموعة كلمات مشتقة منها، قد تجدها في الكتاب.

ان تفريعات الكلمة في العربية لا تلتزم بوضع مقدمة (Prefixe) أو مؤخرة (Suffixe) كما نجد دائما في معظم اللغات اللاتينية.

ان اللغة العربية قادرة على التشكل والتشكيل من ناحية الأصوات كما هي قادرة أيضا على التشكل والتشكيل من ناحية الكتابة.

ومن هنا يتضح لنا أن الكتابة العربية هي في أساسها فن أوجدته مواريث حضارية اشتركت في تخليقه وتمثيله على النحو الكائن بيننا اليوم.

## استخدامات الكتابة العربية في الفن التشكيلي

الكتابة العربية على النحو الذي أوردناه هي في الواقع «بالية» جاهزة أمام الفنان يستطيع أن يأخذ منها ما يراه مناسبا لعمله الابداعي مضيفا اليها ميراث عصره وزمانه الذي يعيش فيه.

**تشكيل فني للخط العربي، على شكل مركب فرعوني للخطاط محمد عزت الكركوكي.**

فالكتابة العربية على امتداد افريقيا وآسيا ليست مجرد لغة للتفاهم، بل هي أعلى من ذلك بكثير.

انها في الحقيقة ثقافة وحضارة مشتركة بين جميع هذه الشعوب لأنها نتائج هذه الثقافات العريضة التي عاشت في المنطقة زمانا طويلا وذلك على عكس ما تجده في اللغات اللاتينية ومشتقاتها.

فاللغة اللاتينية ذات تركيبات أفقية، في حين أن الكتابة اللاتينية في أغلبها على الخط المستقيم، وتمتاز العربية بخطوطها الدائرية بحيث تعطينا الاحساس بالحركة. ولذا نجد منذ العصر العباسي تعدد استخدام الخط العربي من خلال اللوحات التي توضع على الحوائط وتكتب بأشكال مختلفة.

واعتبر الخط العربي من أهم العناصر التشكيلية نظرا لصفاته الكامنة التي تتيح له التعبير عن الحركة والكتلة، وهو لا يعبر عن الحركة بمعناها المرتبط بأشياء متحركة فقط، وانما بمعناها الجمالي الذي يتيح حركة ذاتية تجعل الخط يتراقص في رونق مستقل عن أي غرض انتاجي.

## دور الخط العربي

تطور الخط العربي تطورا كبيرا، وتنوعت أشكاله، وكان لصفة الخط وشخصيته الكامنة في حروفه المستقيمة والمنحنية والراسية والمستديرة والأفقية والمائلة ما أتاح للفنان أن يبدع في تشكيلها، لما تتصف به من مرونة وطواعية.

وكثيرا ما لعب الخط العربي دوره الرئيسي أعلى حوائط العمائر ليحيطها الاحساس بالصلابة والقوة من جهة ومن جهة أخرى كوشي يزين أعلاها.

واذا استعرضنا ما أنتجه الفن الاسلامي في مختلف أنواع منتجاته نجد أن الخطوط التي استعملت كانت تلعب دورا تشكيليا أساسيا سواء أكان ذلك في الجص والرخام أم في الحجر والمعادن أم في الزجاج والنسيج والمخطوطات حيث يراها متكاملة من الناحية التشكيلية مع الشكل العام والزخارف الأخرى.

ولعل من أبرز الدلائل المميزة للفن الاسلامي استعمال الزخارف والنصوص الكتابية، فهو دليل من الدلائل التي تيسر على الانسان التعرف على أن هذا عمل فني اسلامي.

وقد تنوع استعمال الخط كعمل تشكيلي بحيث أعطى للأقاليم الاسلامية شخصية مميزة في اطار الشخصية الاسلامية العامة.. فاستعمال الكتابة في الطراز المغربي الاسباني يختلف عن استعمالها في الطراز الشامي أو المصري أو الايراني. ولذا نجد أن الفنان المسلم في كل اقليم من الأقاليم الاسلامية قد استطاع أن يحمل الخط العربي شخصيته وشخصية اقليمه في اطار الشخصية الاسلامية.

## أنواع الخطوط

يقول حفني ناصف في كتابه «تاريخ الأدب»: الخطوط كثيرة ولكنها ترجع في الأصول الى اربعة:

١ — الخط المصري: أقدم الكتابات الشرقية وهو ثلاثة أنواع:

(أ) الهيروغليفي: خاص بالكهنة وخدمة الدين.

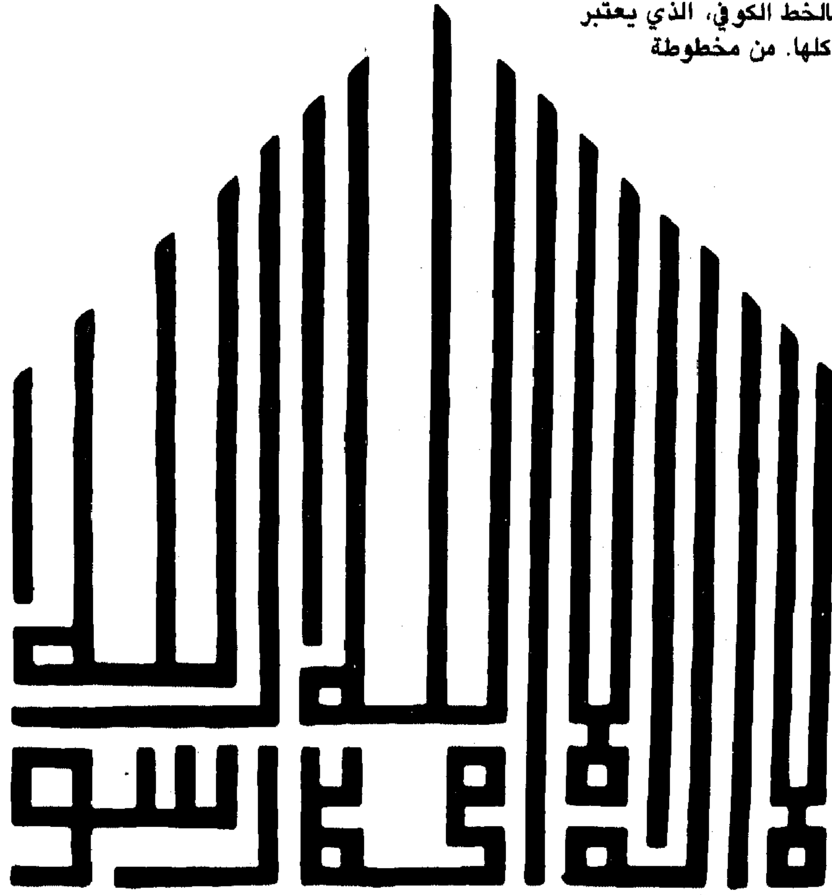
(ب) الهيراطيقي: خاص بعمال الدواوين وكتاب الدولة، وهو أبسط تركيبا من الهيروغليفي وأقرب الى الحروف منها الى الرسم.

(ج) الديموطيقي: خاص بعموم الكتبة من الشعب، وهو أبسط الأنواع الثلاثة.

٢ — الخط المسماري: وكان مستعملا في بابل وآشور وما حولهما، وقد انقرض الآن.

٣ — الخط الحثي: استعمل قديما في بلاد الشام.

٤ — الخط الصيني: وهو مستعمل الآن ومن



لا اله الا الله بالخط الكوفي، الذي يعتبر اصل الخطوط كلها. من مخطوطة في سمرقند.

فروعه اليابأني والمغولي.

٥ ــ الخط الفينيقي: تولدت منه أربعة خطوط:

( أ ) اليوناني القديم ومنه تولدت الخطوط الأوروبية والخط القبطي.

(ب) العبري القديم ومنه الخط السامري نسبة الى سامرة نابلس.

(ج) المسند الحميري ومنه تولد الخط الحبشي.

( د ) الآرامي ومنه تولدت الخطوط الآتية: الهندي، الفارسي، العبري، المربع، السومري، الأنباري، النبطي، الحميري، السرياني، الحجازي، الكوفي.

واذا ألقينا الضوء على الخط العربي من خلال هذه اللمحة السريعة عن الخطوط بصفة عامة فسوف نجد أنه يعد من الفنون العربية الاسلامية والتي سخرت لخدمة الدين، والخط المسماري هو أول خط كتبت به العربية، ومنه استحدث الخط الكوفي.

## أنواع الخط العربي

وعلى مر السنين تطور الخط العربي تطورا ملحوظا، ففي القرن الثالث الهجري عندما جاء ابن مقلة ورسم حروف الخط الكوفي بنسب معينة، وجاء بعده ياقوت الذي جمل الخط العربي ووصل الى حد كبير من الاتقان والروعة، وبعد ذلك جاءت خطوط كثيرة عرفت باسم القلم الذي يستعمل في كتابتها، وتعددت أنواعها ومنها خط الثلث، والثلثين، وخط المصاحف المحقق والنسخ والرقعة.

وفي القرن التاسع عشر استحدث الخط الديواني، أما الخطوط الموجودة حاليا فهي:

**الثلث**: من أهم الخطوط ويستعمل في كتابة أسماء الكتب والآيات القرآنية كزخارف للمساجد.

**النسخ**: سمي بالنسخ لأن الكتاب كانوا ينسخون به المصاحف.

**الرقعـة**: من أسهل الخطوط ويستعمل في جميع الأعمال وبين العامة من الناس.

**الفـارسي**: خط جميل ابتكره أهل فارس ويستعمله الأفغانيون والهنود في كتاباتهم.

**الكوفي**: من أقدم الخطوط، وقد بلغ منزلة كبيرة في العصر العباسي، ويعتبر أصل الخطوط كلها.

**خطوط الاجازة والتوقيع**: وهو خط خليط بين الثلث والنسخ.

**الديواني**: وهو خاص بدواوين الملوك وكانت تكتب به الأوامر الملكية وهو قسمان «ديواني رقعة» و «ديواني حلبي» ونشأ في عهد الامبراطورية العثمانية.

والخط العربي جزء مهم من التراث الحي للأمة العربية، ويرتبط بلغتنا وتطورنا الثقافي، ويرجع اليه الفضل في تماسك العرب ووحدتهم وحفظ تراثهم.

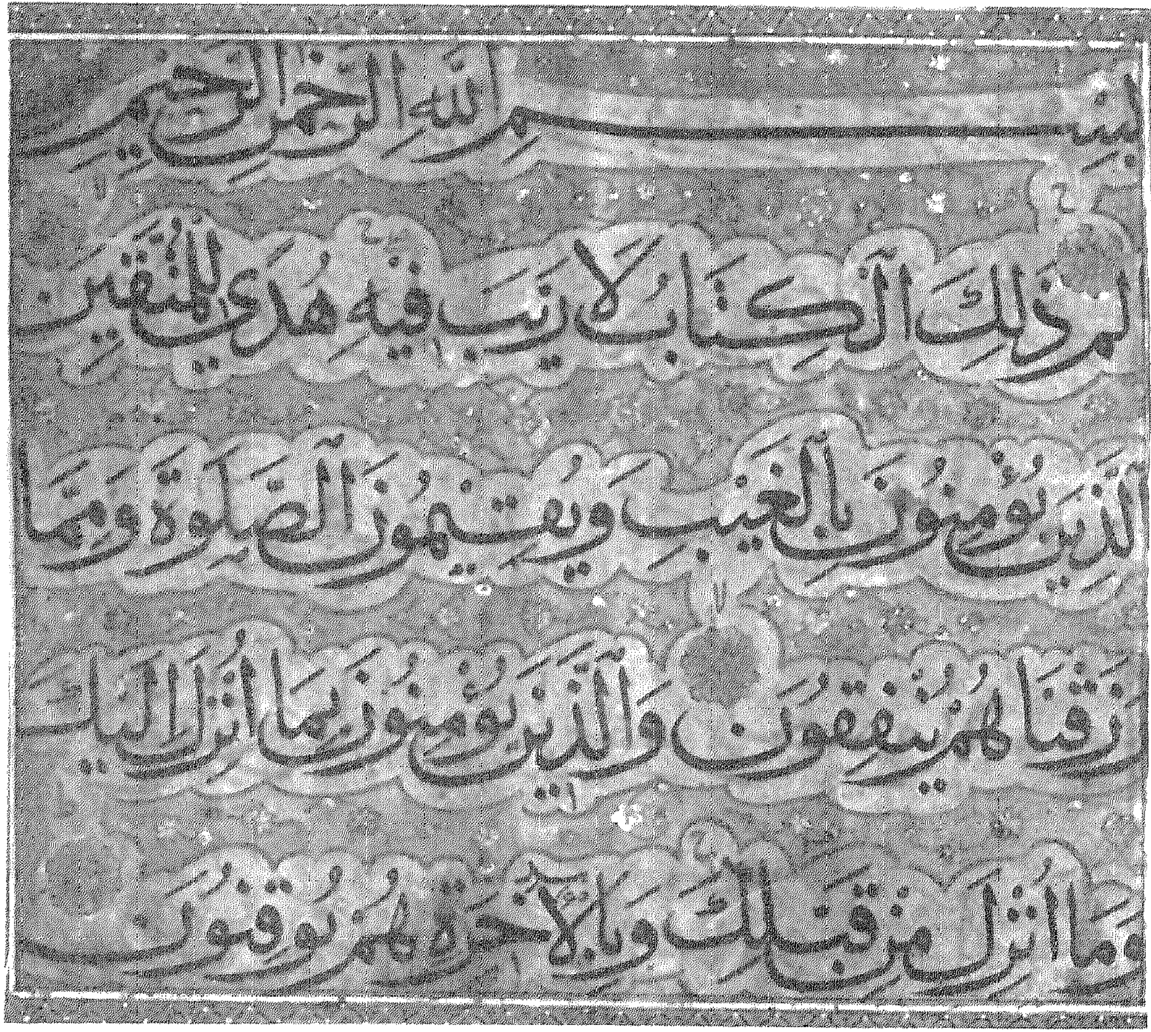
## دور بارز للخط في العصر الحديث

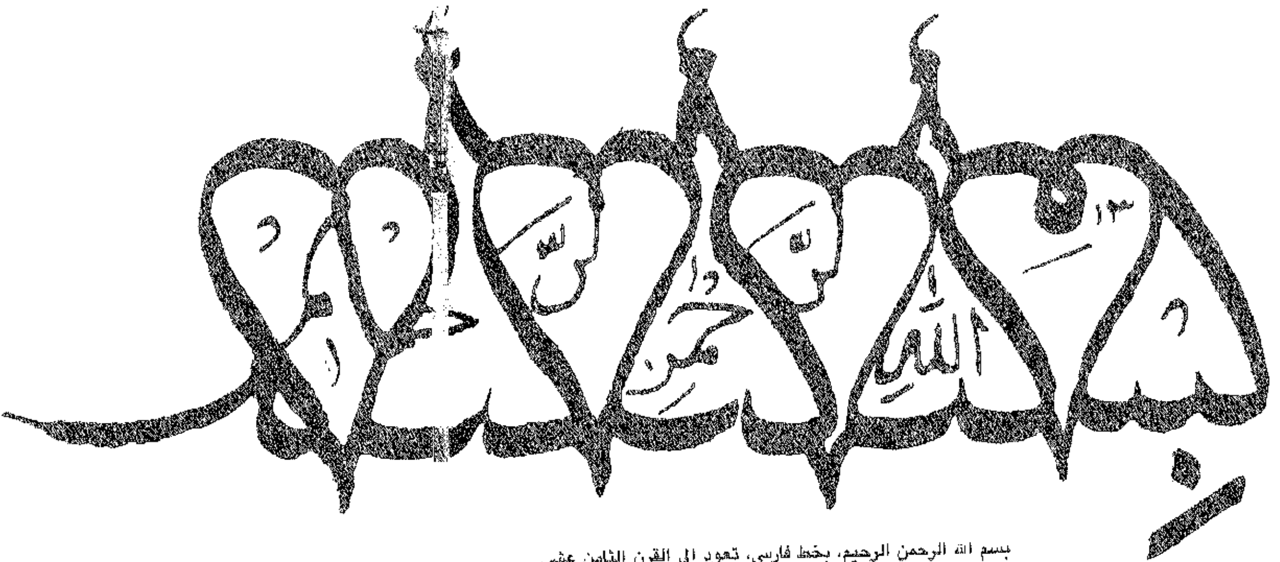
وفي الستينات بدأ فنانونا التشكيليون يقومون بدور قومي فعال عن طريق استخدام مفهوم عصري في تشكيل الخط العربي كفن من الفنون الجميلة الراقية التي ترهف الحس، وتربي الذوق وتغري بالجمال، شأنه في ذلك شأن الرسم والنقش والحفر والتصوير.

وأسلوب الكتابة العربية هو الذي ساعد على ذلك فأمكن للفنان أن يحور بحرية شبه كاملة في تركيب وتشكيل الحرف العربي بحيث لا يضر ذلك بمفهوم اللفظ.

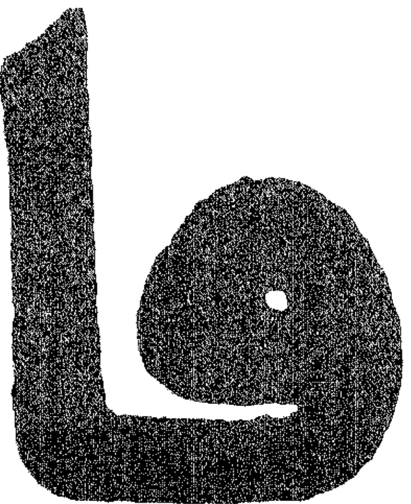
ومن هذه الحرية والحركة والتشكيل تم

صفحة من القرآن الكريم «بخط النسخ»، وسمي كذلك لأن الكتاب كانوا ينسخون به المصاحف.

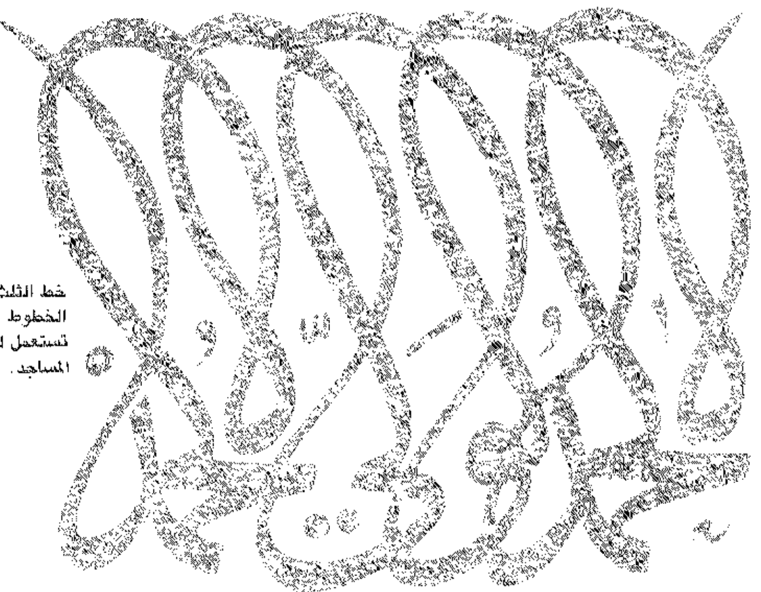




بسم الله الرحمن الرحيم، بخط فارسي، تعود الى القرن الثامن عشر.



«الفاء» خط كوفي



خط الثلث، من اهم الخطوط التي تستعمل لزخرفة المساجد.



استخدام الكتابة العربية باعتبارها لغة أعلى بكثير من لغة التفاهم اليومية بمعنى أنه تم استخدامها باعتبارها لغة للفن.

وهؤلاء الفنانون المبدعون حملوا على عاتقهم بوادر هذا الميراث، فقد تربع د. يوسف سيدة على رأس الحركة التجريدية عن طريق استعماله للكتابة العربية، واشترك معه في هذا فنانون آخرون مثل رمزي مصطفى، وعمر النجدي، وفي منتصف الستينات ظهر تيار آخر يمثل ما يسمى بمدرسة السيكوديلك (Sicodelic) ومن فناني هذه المدرسة الفنان أحمد فؤاد سليم. وتعنى هذه المدرسة باسقاط المشاعر الداخلية والنفسية، فوق الأشكال والحروف، وجعلها تمثل مع الشكل بعدا زمنيا.

وفن الكتابة من حيث استخدامه كفن تشكيلي أخذ طريقه في معظم بلدان الشرق الأوسط الناطقة باللغة العربية خاصة في ايران والعراق ولبنان وتركيا والجزائر وتونس والمغرب بحيث أن هذا الاتجاه القومي في الفن أخذ يشق طريقه بقوة جارفة، وبحيث استطاع أن يتسابق بكفاءة شديدة أمام مدارس الفن العالمية.

* * *

ان الخط العربي، هذا التراث العظيم الذي كتب به القرآن الكريم، والذي أولته الأمة العربية منذ القدم هذه العناية، فجعلت منه فنا دقيقا مفصل القواعد، ثابت الأسس، مقرر الضوابط، يحتاج منا الى اهتمام شديد وعناية فائقة، فلا بد من تدريسه بالمدارس كما كان متبعا في الماضي من خلال كراسات الخط التي كانت تعد لذلك، والتوسع في مدارس تحسين الخطوط، وضرورة اعطاء من يمارس كتابة الخط على أسس علمية راسخة اجازة تثبت أحقيته لممارسة عمله كخطاط حتى لا ينقرض الجيل الذي حفظ للخط مكانته، وحافظ على قواعده، وجود وحسن فيه. كما أؤكد على ضرورة اقامة المعارض والمسابقات الفنية لكبار الفنانين المهتمين بالخط العربي حتى يظل هذا الفن الرائع محتفظا بأصالته متجددا طالما أن الأمة مزدهرة فنونها، رائدة في الحفاظ على تراثها الحضاري الذي يعتبر الدعامة الأصيلة للتقدم الثقافي والفكري.

●

# المحتسب في العصر العباسي

كتابة: كارولين ستون
ورسوم: بني ولياماس
ترجمة: «تاريخ العرب والعالم»

## الموظف الحكومي والمراقبة

يتأفف الكثيرون من موظف ضرائب أو مفتش صحي أو مراقب عام أو أي موظف حكومي يضع الحد الفاصل بين المسموح والممنوع: يتأفف هؤلاء ويترحمون على أيام زمان حيث لا مراقب ولا محاسب، فيخطئون، فالموظف الحكومي عاصر الحياة المدنية منذ بدئها في دلتا النيل وضفاف الرافدين وأنهار الصين الكبيرة وكان يتدخل باسم الحكومة في أعمال المواطنين النزيه منهم وغير النزيه، بدءاً بالمقاييس والأوزان مروراً بالنظافة والصحة وصولاً إلى الضرائب وغيرها: فمن اراد العيش في مجتمع مدني مكتظ عليه تحمل الموظف الحكومي.

لم يحد العرب عن هذه القاعدة، بل تمكنوا خلال العصر الذهبي للاسلام، أي حوالي سنة ١٠٠٠م، من رفع الحياة المدنية إلى أعلى درجات الرقي، فشملت من ضمن ما شملت موظفاً واسع الصلاحية مسؤولاً عن تأمين الانضباط بكل انواعه داخل المجتمع... هذا الموظف هو المحتسب. ومن الخطأ ربط مهمته بالتفتيش عن المقاييس والأوزان فقط لأن مهمته كانت اوسع من هذا بكثير.

نعرف الكثير عن أعمال المحتسب من خلال الكتب التي عاشت وبقيت في اسبانيا الاسلامية فسطرت الكثير عن أعمال الموظفين خلال عدة قرون. كان المحتسب مسؤولاً بالدرجة الأولى عن ضبط المقاييس والأوزان المستخدمة، إلى جانب مسؤوليته عن ضبط كل المقاييس العامة والاجتماعية وصولاً الى التصرفات الاجتماعية نفسها، ومحاطاً بفريق من المفتشين والمراقبين الذين كانوا يراقبون كل الدكاكين ويسجلون المخالفات.

## مهمات المحتسب وأشكال المراقبة

ومن أصعب مهمات المحتسب آنذاك المراقبة الصحية العامة إذ كانت أصعب وادق من مجرد مراقبة الأوزان فهي معركة مستمرة لابقاء الشوارع نظيفة في الأجزاء المهمة من المدينة على الأقل الى جانب تنظيم عملية التخلص من النفايات.

ان أهمية النظام في الطعام والشراب لمنع تسرب وانتقال الأمراض كان معروفا جدا عند علماء الاسلام مما زاد القيود والشروط حول بيع وشراء الطعام والشراب وبالتالي زاد من أهمية هذا الجزء من نشاط المحتسب.

نبدأ باللحام فعليه أن يقوم بذبح الحيوان في المسلخ العام وتحت اشراف المحتسب، وعليه فصل لحم العجل عن لحم الماعز الذي يؤشر عليه بعلامة صفراء، ويبقى الذنب على الذبيحة حتى بيعها كلها وذلك للمساعدة في تحديد نوع اللحم المباع. وبالطبع كان بيع لحم الحيوانات المريضة للمطابخ ممنوعاً، فاللحم القديم يعلق خارج الملحمة ولا يخلط باللحم الطازج. وفي نهاية كل نهار على اللحام أن يرش الذبائح بالملح ويغطيها بسعف النخيل.

«وبائع السمك كان عليه غسل سلاله وأدواته وتمليحها يوميا وتجفيف أو تمليح السمك غير المباع شرط استمرار جودته، وإلا فعليهم رميها في مجمع نفايات خاص خارج المدينة. وكان تحضير السمك وغيرها من المهن «غير النظيفة» كالصبغ والدهن يجري في مناطق خاصة بكل منها.

واستكمالاً لمهمته كان المحتسب يراقب مجالس وبيوت الطعام فيأمر بطلي المقالي والطناجر النحاسية او تغييرها كلياً إلى جانب تغطيتها مع أواني الطعام لمنع اقتراب الذباب والحشرات التي كانت معروفة كناقلة للأمراض وخاصة في ايران حيث حدد ذباب المنزل كمسؤول عن نشر الأمراض وذلك قبل ١٠٠٠ سنة.

بعد المطاعم كان المحتسب ومساعدوه يراقبون الأفران من ناحية النظافة الداخلية واتباع الشروط الصحية ونوعية الطحين المستعمل «وقد وصلت سطوة المحتسب في الأيام العباسية الأخيرة ان كان قادراً على إعدام أي شخص يكرر القيام بأعمال مضرة للمجتمع.

لم ينس المجتمع العربي الاسلامي وبالتالي المحتسب دور الماء والحليب في نقل الأمراض ونشرها. ففي بغداد كان الماء يقسم إلى نوعين الأول وهو الأفضل يؤخذ من الآبار والثاني وهو الأقل نظافة ويؤخذ من النهر. كان الماء الأفضل





يباع في جرار كبيرة توضع حول المدينة وتغطى بسعف النخيل أو غطاء ذي مسامات ويمنع منعاً باتاً الشرب مباشرة من الجرار الكبيرة، أو وضع اليد فيها بل يسكب الماء في جرار صغيرة يجلبها الشارون. ويجب تحمية هذه الجرار يومياً وتغسيلها للمحافظة عليها. ويحق للمحتسب في حال مخالفة بائع الماء رمي الماء ارضاً أو اغلاق الدكان.

أما ماء النهر فكان أقل ضمانة من ماء الآبار. ولمنع التلوث الزائد قام الخليفة المقتدي في القرن الحادي عشر بمنع المسؤولين عن الحمامات الشعبية من جر المياه الوسخة الى النهر بل الى آبار تجميع خاصة، وجرى العمل أيضاً على منع رمي النفايات في الفرات. كانت مياه النهر تباع في أدلية أو قرب جلدية وخوفاً من إذابة مادة الصباغ الجلدية في الماء المباع للاستهلاك الشخصي أصر المحتسب على ضرورة استعمال هذه القرب في أعمال البناء أولاً حتى يخف خطر هذه المواد.

لم تنج الحمامات الشعبية من رقابة المحتسب فعلى الماء ان يكون نظيفاً ومنعشاً والبلاط نظيفاً ومغسولاً الى جانب منع غسل أي ملابس أو أغراض ذات روائح كريهة، ويمنع المصابون بالأمراض الجلدية كالجرب والجذام من دخول هذه الحمامات. وكان على كل حمام شعبي أن يضع جرة كبيرة تحتوي على ماء خاص للشرب.

أما بيع الحليب فكان أكثر تحديداً، فمن نظافة وتغطية الأوعية الى نظافة أماكن الحلب والتجميع إلى نوعية الحليب نفسه. فقد منع تخفيف أو أخذ الزبدة من الحليب أو غشه بأي شكل كان وكانت تجري عدة اختبارات للتأكد من ذلك.

## مراقبة الأطباء وبائعي الأدوية

«وحتى يكتمل العقد توسعت صلاحيات المحتسب من مراقبة أوجه الصحة العامة الى مراقبة الأطباء وبائعي الأدوية وكل ما يتعلق بصحة المواطن الشخصية. قبل عام ٩٣١م كان يحق لأي كان أن يمارس أية مهنة طبية أو صحية يريد دون قيد أو اشتراط حتى كانت وفاة أحد أفراد حاشية الخليفة المقتدي نتيجة خطأ ارتكبه أحد الأطباء فأمر عندئذ بوجوب

امتحان المحتسب لكل من يدعي مهنة الطب واجازة الناجحين منهم فقط. وكان أن أجيز ٨٦٠ طبيباً في بغداد وحدها تلك السنة، وصار على كل من يريد أن يمارس هذه المهن أن يتقدم الى امتحان خاص. وكان طبيب العيون تحت مراقبة شديدة خاصة في مجال عمليات العين كازالة الماء الزرقاء.

لم تنجح هذه الاجراءات كثيراً وذلك لتعلق الناس أنفسهم بالكثير من المشعوذين وغير المتخصصين لايمانهم بهم من ناحية وعدم تمكنهم من دفع أجور الطبيب خاصة وان عدد الأطباء المجانين كان محدوداً.

راقب المحتسب أدوات الطبيب فكان يتأكد من وجود كافة أقسام العدة ويتأكد ايضا من نوعية المعدن المصنوعة منها، خاصة ان الحرفيين أيضاً كانوا تحت القسم بأن لا يستعملوا مواد غير صحية أو طرقا صناعية سيئة لصنع هذه الأدوات. وراقب المحتسب العطار (بائع الأدوية) فمنع غش وخلط الأدوية الغالية بالرخيصة وكان عقاب المخالفة شديداً خاصة ان المحتسب كان يظهر ساعة يشاء ليلاً أو نهاراً للتأكد من نظافة وترتيب الأدوية والجرار التي تحتويها.

واستمرت أعمال المحتسب الكثيرة عبر السنين فتشعبت وتوسعت مع تقدم المدينة ولم يخسر المحتسب من مهماته إلا مراقبة الأطباء المجازين وهم يقسمون قسم ابقراط. فهذا القسم قد وصل قبل بدء المهنة الطبية ويرجع بعيداً الى أيام اليونان والهند وايران القديمة، ومع العباسيين وأمام المحتسب أقسم الأطباء الى جانب أشياء كثيرة على عدم استعمال التخديرات أو السموم في الأدوية، وعدم استغلال ثقة المريض العمياء بطبيبه والتزام حدود الأخلاق مع المريضات». وما زالت أكثر أجزاء هذا القسم تتكرر على ألسنة الأطباء المجازين في كل أنحاء العالم باستثناء عدم وجود المحتسب الذي نعم بهذه المهمة في العصر الذهبي العباسي. ●



# العربي وفرسه

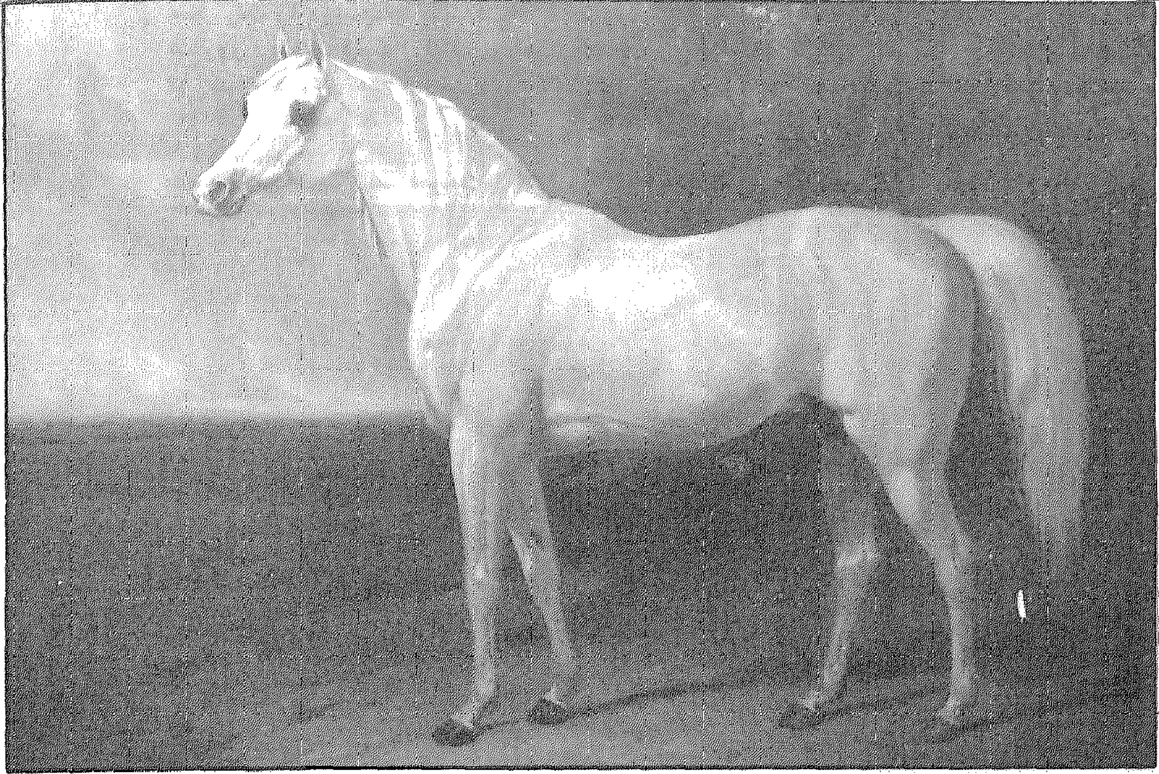
هلموت فون مولتكه

ما زلت ارميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلي بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة، اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمي

«عنترة بن شداد (المعلقة)»

صيد الأسد لـ ا.ج.هـ. فيرنيت (١٧٨٩ — ١٨٦٣) لوحة زيتية في مجموعة الوالس. كوليكش، لندن.





ولما عرض الله الخلق على آدم عليه السلام وسماهم قال الله تعالى: يا آدم اختر من خلقي ما احببت فاختار الفرس. فاوحى الله اليه اخترت عزك وعز ولدك باقيا فيهم ما بقوا ابداً وبركتي عليك وعليهم.
«من مخطوطة (كتاب الفروسية وشيات الخيل) لأبو يوسف يعقوب».
ادونيس لـ ا.كوبر (١٧٨٧ ــ ١٨٦٨) لوحة زيتية في مجموعة خاصة.



كادت الصفقة أن تتم، فقد أعجب الباشا بالفرس، واستغرق التفاوض مع القبيلة العربية زمناً، وأخيراً اتفق الطرفان على الثمن وحدداه بمبلغ ستين كيساً، أي بنحو ستمائة مارك.

وفي الموعد المتفق عليه أقبل شيخ القبيلة الى قصر باشا «ماردين» ومعه الفرس. ولكن الباشا التركي راوده الأمل في تخفيض الثمن، فها قد حضر اليه العربي، وما عليه غير أن ينتقص من قيمة الفرس وأن يثور ويزبد إن اقتضى الأمر. ولكن الشيخ العربي رفض في أنفة شديدة أن يتنازل عن فلس واحد. فما كان من الباشا التركي إلا أن ألقى اليه الثمن في غضب وهو يصيح بأن العربي يسلبه ماله ويعطيه مقابلاً أقل قيمة.

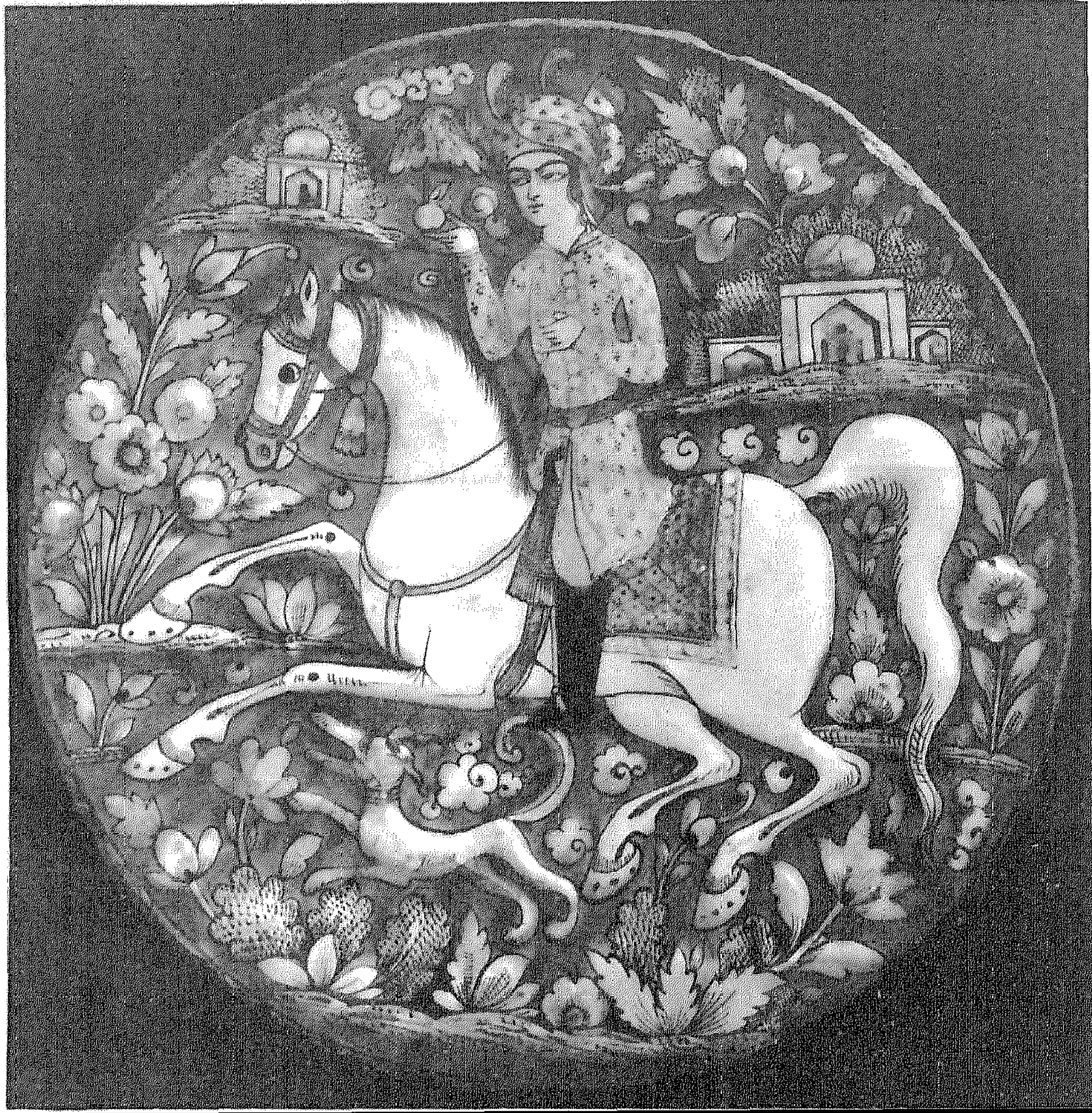
نظر اليه الشيخ العربي في هدوء دون أن ينبس. ثم جمع الأكياس ووضعها في عباءته البيضاء التي يلتحفها. ونزل الأدراج الى الحوش لكي يودع فرسه. واقترب منه وغمغم اليه بكلمات في أذنه ومسح بيده على عينيه وجبهته. ثم فحص حوافره، وسار بخطوات وئيدة حوله. ثم فجأة قبل أن يدرك اتباع الباشا ما حدث، قفز على ظهر الفرس العاري واندفع به الى الخارج.

من المعتاد في الشرق أن تظل الجياد مطقمة ليل نهار، أي تحمل سرجاً من اللباد ليل نهار، ومن المعتاد أن توجد في إسطبلات كبار القوم بعض الجياد المجهزة المعدة للامتطاء في جميع الأوقات. هذا على خلاف عرب البادية الذين لا يجهزون جيادهم بمقود أو زمام، حيث يكتفون بغمز الجياد لايقافها، وبتوجيهها الى اليمين والى اليسار بضربات خفيفة براحة الكف على الأعناق.

ومن ثم فلم يطل الأمر، إذ انطلق اغوات الباشا فوق الجياد يطاردون العربي الهارب. كادوا أول الأمر أن يلحقوا به، ففرس العربي

ليس ذا دربة على العدو فوق الأرض المبطن بالحجر. وكان على الفرس أولا أن يقطع الطريق المؤدي من قصر الباشا الى نهاية المكان. ولكن ما كاد فرس العربي أن يجتاز هذا العائق حتى اندفع مجنحاً كأنه يسبح بين الرمال والهواء. وما من عائق يعوقه. ولكن ما كان بود العربي ان يختفي عن أعين مطارديه وانما أن يظل قريبا منهم بعيدا عنهم، أن يراودهم ويقعدهم في نفس الآن. فها هم كل لحظة يأملون اللحاق به ولكن هيهات. والأغرب أن العربي لا يجهد نفسه أو فرسه، وانما يتمهل حيناً ويسرع حيناً آخر.

استمرت المطاردة على نفس المنوال حتى هبط قرص الشمس من علاه وانسحب ماضياً في دورته حتى كاد يغيب عن الأنظار. وغامت الدنيا في أجواء الغسق. في هذه اللحظة اندفع العربي



روي عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها واكفالها وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار. وعليكم بكل كميت اغر محجل او اشقر اغر محجل او أدهم اغر محجل.

(حديث شريف)

قطعة سيراميك إسلامية في مجموعة خاصة.



قال ابن رشيق... وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، او شاعر ينبغ فيهم او فرس تنتج.
(من كتاب «العمدة» القرن الحادي عشر)

خيمة عربية للسير ادوين لاندسير (١٨٠٢ ــ ١٨٧٣) لوحة زيتية في مجموعة الوالس. كوليكشن، لندن.

بفرسه وكأنه يودع مطارديه مخلفاً وراءه زوبعة من التراب.

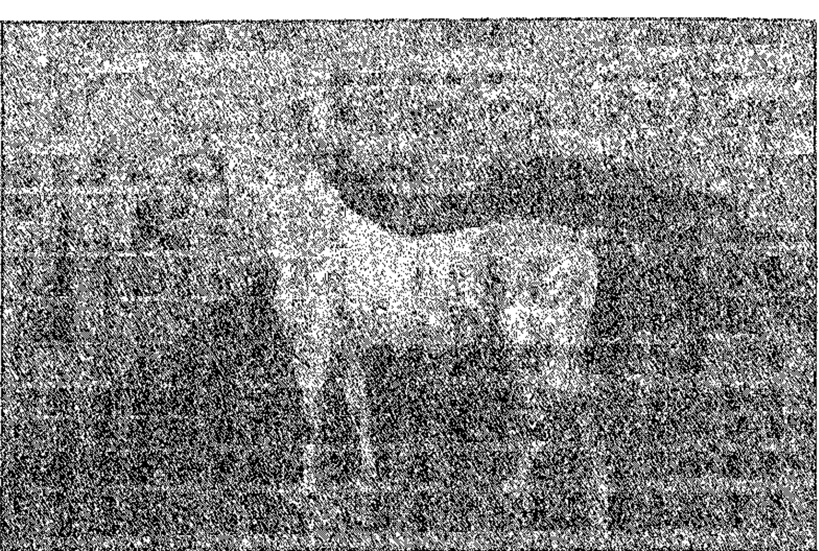
لا يدوم الشفق في الشرق إلا فترة وجيزة، وسرعان ما اختفى العربي وفرسه وهبط الظلام.

كانت قد مضت ساعات طوال على الأغوات الأتراك في تلك المطاردة الغريبة، وها هم بعد نهار كامل يقفون في منتصف الصحراء دون زاد أو ماء. فما كان لهم غير أن يكروا عائدين، ليعلموا سيدهم التركي بخيبتهم، وبأنه فقد الفرس والمال. عاد الأغوات في الليلة الثالثة، وقد كاد الجوع والعطش أن يقضيا عليهم وعلى جيادهم، ولعلهم كانوا سعداء بأنهم لم يقضوا نحبهم، ولكنهم عادوا أيضاً بغضبهم وحنقهم على

قال النبي، صلى الله عليه وسلم: عليكم بإناث الخيل فإن بطونها كنز، وظهورها حرز، وأصحابها معانون عليها.
(حديث شريف)



لوحة مائية لهارينغتون بيرد (١٨٧٠ ــ ١٨٩٣) في مجموعة خاصة.



سكون غريب يكمن في عين الحصان، كأنه ينظر وبرود متعمد... انها نظرة من أعماق الحلم...
«هنس ــ هنريش ازينبارت»

حصان عربي لـ ا. كوبر (١٧٨٧ ــ ١٨٦٨) لوحة زيتية في مجموعة خاصة.

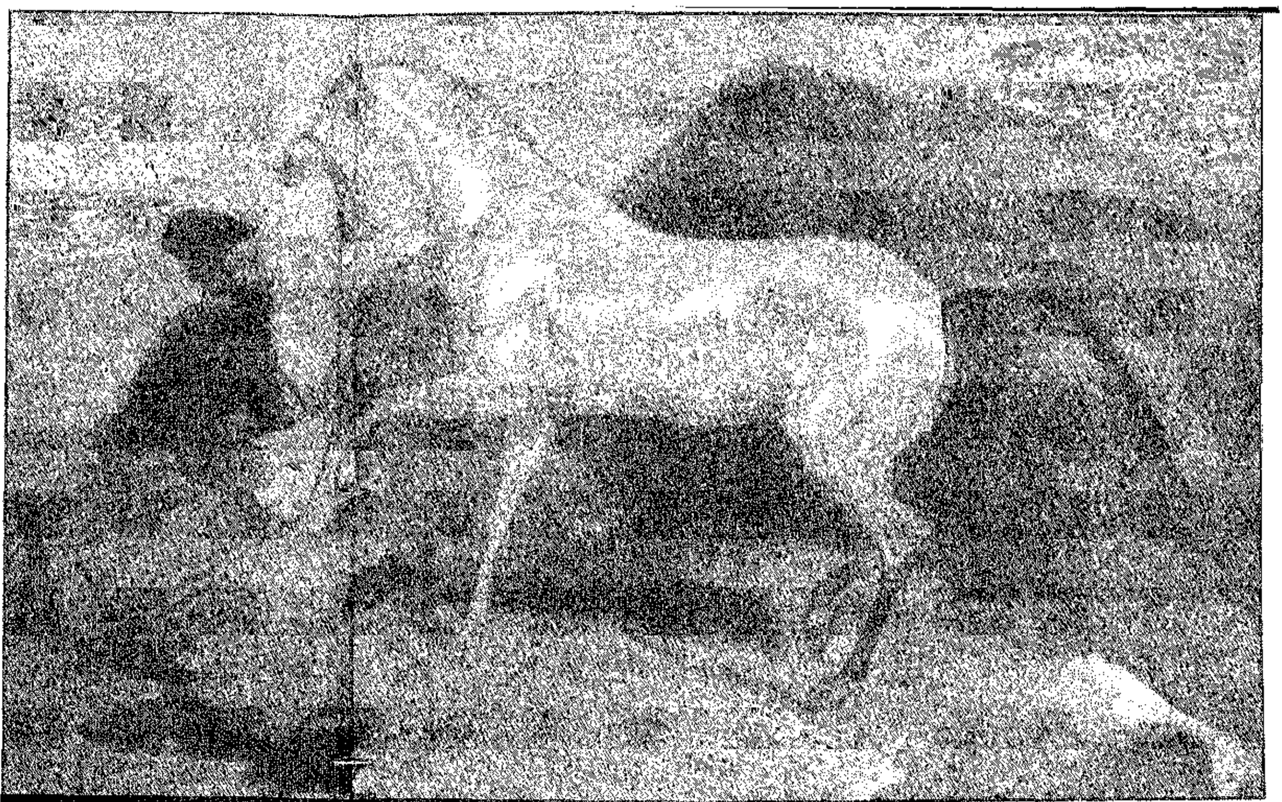
ذلك العربي الذي غدر بهم، وإن اعترفوا فيما بينهم بأن فرسه بلا ثمن وأن الباشا قد أخطأ في التهوين من شأنه.

في صباح اليوم التالي بعد أن أذن المؤذن لصلاة الفجر سمع الباشا صوتاً يناديه، ثم سمع صهيل جواد في الحوش. فأطل من طاقة فرأى العربي والفرس. ثم سمع الشيخ العربي يناديه ويسأله: «يا سيد أتريد نقودك أم تريد الفرس؟».

الصور مأخوذة من روزنامة «الحصان العربي» عام ١٩٨٢م ١٤٠٢هـ التي صدرت عن شركة «مدماك»

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد، قيد الأوابد، هيكل
مكر، مفر، مقبل، مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفراء بالمتنزل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تنفل
«امرؤ القيس»

حصان عربي مع مرافق تركي للسير ادوين لاندسير (١٨٠٢ ـــ ١٨٧٣) لوحة زيتية عائدة لصالة عرض أوين ـــ ادغار ـــ لندن.





روى الثعلبي: لما أراد الله تعالى أن يخلق الخيل قال للريح الجنوب اني خالق منك خلقا اجعله عزا لأوليائي ومذلة على أعدائي وجمالا لأهل طاعتي. فقبض منها قبضة فخلق فرساً. فقال اني خلقتك وجعلت الخير معقود بناصيتك والغنايم مجموعة على ظهرك، عطفت عليك صاحبك وجعلتك تطير بلا جناح.

الفرس عن مخطوطة عجائب المخلوقات للقزويني.
(العراق، أواخر القرن السابع عشر)
محفوظات المكتبة البريطانية ـ لندن.





الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة وأهلها معانون عليها والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة. (حديث شريف)
عربي وخيول ـ ج. ج. بكور (١٧٤٩ ـــ ١٧٩٨) لوحة زيتية على القماش



أعز مكان في الدنى سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب «المتنبي»

الحصان في مخطوطة إسلامية في القرن السادس عشر. محفوظات المكتبة البريطانية ـــ لندن.

من ذكرياتي عن الانتداب الفرنسي على لبنان

# أقوى حركة شعبية بيروتية

## مُقاطعة الكهرباء والترامواي سنة ١٩٣١

جان سرور



ويظهر جلوسا من اليمين: عمر الداعوق، المسيو بيرار رئيس مجلس ادارة «شركة الجر والتنوير» الشيخ محمد الجسر، المسيو فاسلين مندوب المفوضية الفرنسية. وقوفا من اليمين: اسكندر البستاني فؤاد حبيش، الشيخ خليل الخازن قائد الدرك، موسى مبارك، خليل تقي الدين والنواب جورج يعقوب، الامير خالد شهاب، ابراهيم حيدر، وديع نعيم، الدكتور حليم قدورة ثم اسكندر الرياشي وجميل بيهم وشارل تيان. □ عن مجلة «المعرض» ٢٦ نيسان ١٩٣١



ومع حلول الثلاثينات أخذت الشكوى تتزايد من شتى اوساط الشعب اللبناني حتى تنبه الانتداب للامر واخذ يحسب لنقمته ألف حساب ويرتاب في كل تحرك شعبي حتى ولو كان طابعه اقتصادياً بحتاً، وهذا ما بدا واضحا كل الوضوح عندما طالب سكان العاصمة بيروت بتخفيض اسعار الكهرباء والترامواي فرفضت «شركة الجر والتنوير» تخفيض الاسعار اعلن البيروتيون من ثم مقاطعة الشركة وكان ذلك في شهر آذار ١٩٣١.

وكانت هذه المقاطعة اقوى حركة شعبية قام بها البيروتيون في نضالهم ضد الانتداب. فهبت المفوضية الفرنسية لافشال الحركة. فالقصد السياسي كان واضحا من خلال محاربة شركة

ان الانتداب الفرنسي على لبنان الذي نعم برضى فئة كبيرة من المواطنين في بداية عهده، لم يدم له هذا الرضى طويلا، لان من رغب فيه اول الامر اخذ يشعر بالخيبة مع مرور السنين وتزايد الممارسات التي كانت تصدر عن رجال الانتداب ابتداء من المفوض السامي الذي هو رأس الهرم نزولا الى مساعديه ووصولا الى المستشارين لدى الحكومة اللبنانية، في بيروت والمحافظات، والذين كان لهم الرأي النافذ في مختلف الشؤون.

الكهرباء. فأوعزت الى الحكومة اللبنانية بضرورة مساندة الشركة، وقيل في ذلك الحين ان وقفة المفوضية هذه نابعة من رغبتها في الدفاع عن مصالح الرأسماليين الفرنسيين المساهمين في الشركة البلجيكية الاصل. وقال بعض الناطقين بلسانها ان من واجبها الدفاع عن الرأسمال الاجنبي لان البلاد بحاجة الى مشاريع اقتصادية كبيرة تفتقر اليها مصلحة لبنان وتقضي بتشجيع الرساميل الاجنبية.

وكانت لجنة المقاطعة شعبية في تكوينها ليس للنزعات الحزبية اي اثر في توجيهها او عملها ولعله الاجدر بي أن أقول أنه في ذلك الزمن لم يكن للتيارات الحزبية أو النزعات الطائفية اي اثر في العمل العام. وكانت تتألف اللجنة من ذوي المصالح المتواضعة وأصحاب الدكاكين اذكر منهم الصيدلي محيي الدين المحمصاني، عبد القادر النويري فؤاد أبو راشد طانيوس واكد، جوزيف سمعان، وديع زخور، اميل عيراني، سليم العقاد، سليم فروخ، ميشال المعماري، جان صنبر، محمد قباني، جوزيف قسيس، عبد علامة، جورج وردية وغيرهم.

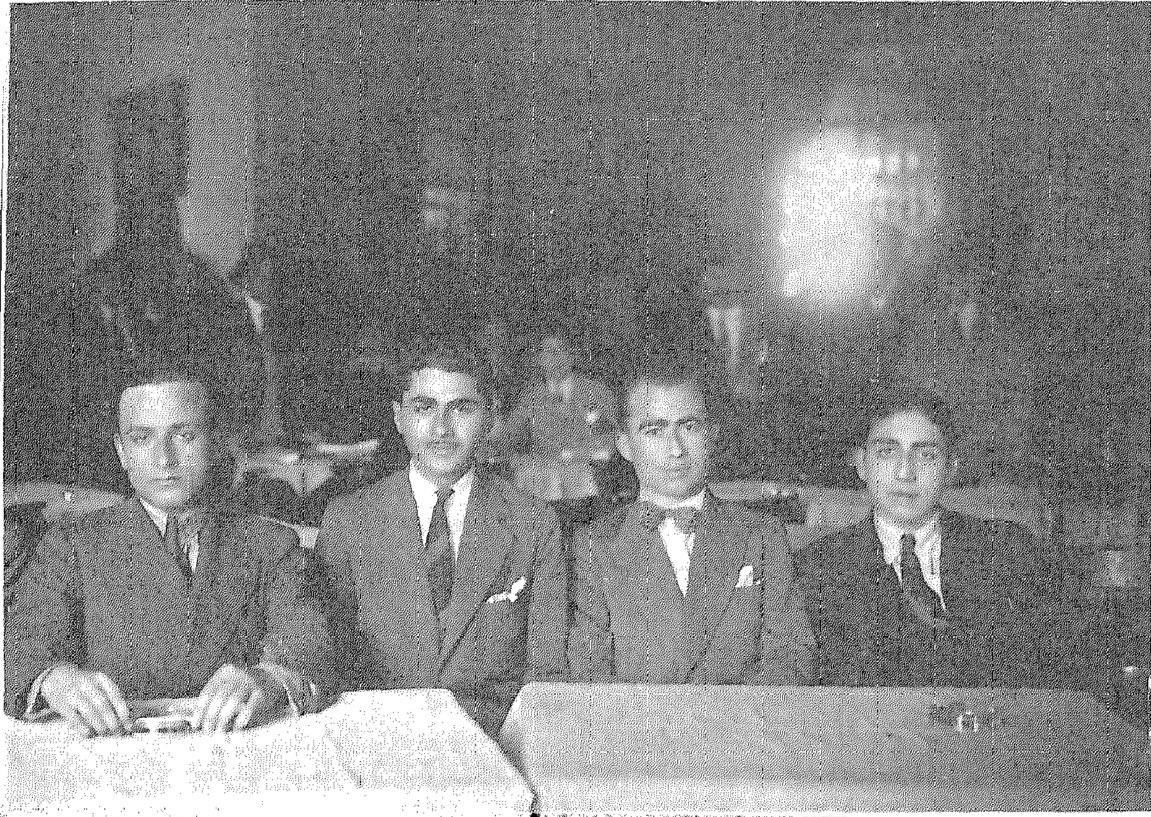
وكان الطلاب هم العصب الاساسي في هذه الحركة الشعبية ومثل الجامعية الاميركية في اللجنة جان اسطفان (فلسطيني) وابراهيم فتوحي (عراقي) ومثل الكلية العلمانية عماد الصلح وسعد الدين الغندور.

وعندما اعلنت اللجنة بدء المقاطعة لبى البيروتيون النداء بحماس شديد وانضباط متين رغم الحاجة الماسة الى الترامواي الذي كان واسطة الانتقال بين اطراف المدينة ومرافقها فاستعاض عنه الناس بالسيارات مع العلم ان خدمات «السرفيس» في السيارات كانت محدودة فتطور السرفيس منذ ذلك الوقت، كما لجأ الطلاب الى البسكلاتات وغيرها من وسائل النقل القديمة. اما في التنوير فقد اطفأ الناس قناديل الكهرباء في بيوتهم ومحلاتهم ومدارسهم واستعاضوا عنها بالشموع وقناديل الكاز بالرغم من بقاء التيار متصلا. فقد كان لاي ولد أو طفل في أي بيت ان يدير زر الكهرباء فينور البيت ولكن المقاطعة كانت تلقائية واجماعية. حتى موظفو الدولة انفسهم، وكانوا يعملون بعد الظهر في دوائرهم، التزموا بالمقاطعة.

## تدخلات ووساطات

وجرت بعد تنفيذ المقاطعة مساعي ووساطات بين الشركة واللجنة، قام بها عدد من وجهاء البلد اذكر منهم عمر الداعوق، هنري فرعون، موسى نمور وكان وزيرا للداخلية، وكذلك لجنة وساطة مؤلفة من محمد جميل بيهم ووديع نعيم وغيرهما ولكن مساعيهم لم تسفر عن شيء. واخيرا تدخل الشيخ محمد الجسر وكان رئيسا لمجلس النواب فدعا لجنة المقاطعة الى مكتبه في سراي البرج، وحضر الاجتماع بالاضافة الى اعضاء اللجنة مندوب المفوضية الفرنسية ورئيس مجلس ادارة الشركة والنواب الامير خالد شهاب وعمر الداعوق والدكتور حليم قدورة وابراهيم حيدر وموسى مبارك وقائد الدرك الشيخ خليل الخازن، والشيخ خليل تقي الدين وغيرهم.. ومثل الطلبة في هذا الاجتماع عماد الصلح.

وتكلم الشيخ محمد الجسر وذكر الحلول والحد الادنى الذي توصلت اليه الشركة، فطال الجدل بين المجتمعين الى المساء فاضيئت

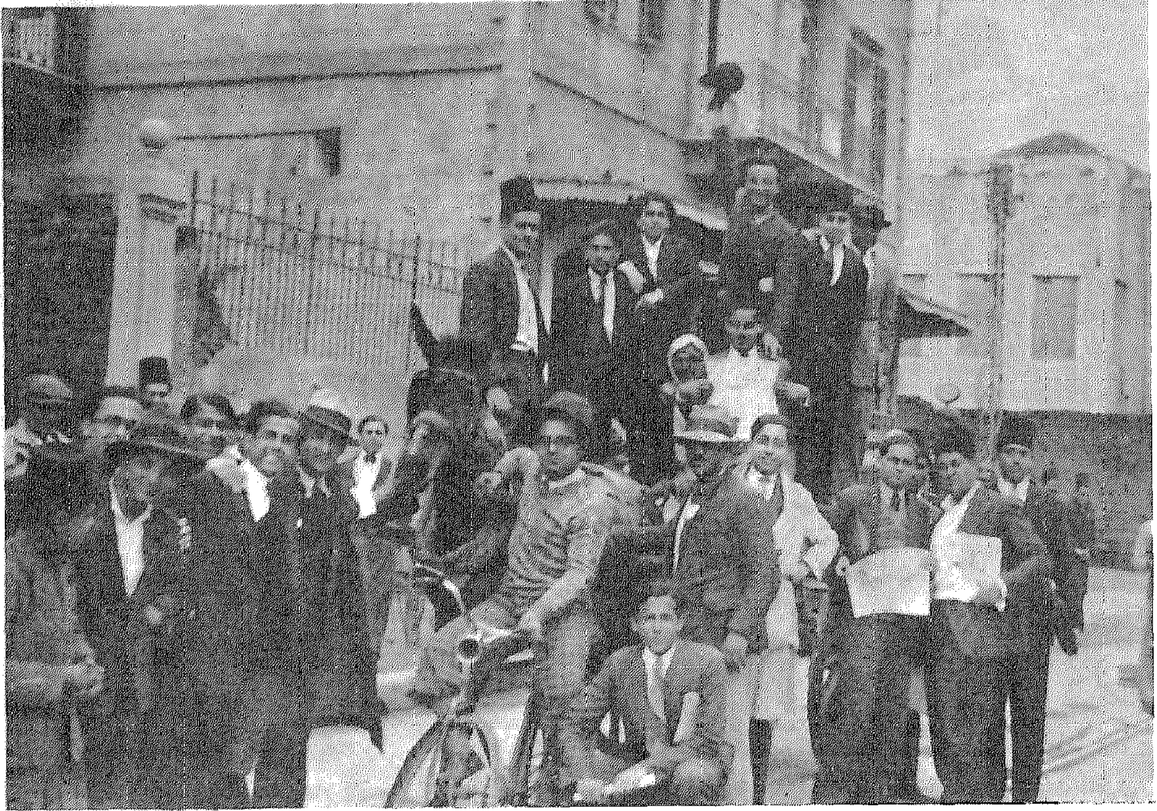


مندوبو الطلبة في لجنة المقاطعة من اليمين: سعد الدين الغندور (الكلية العلمانية) ابراهيم فتوحي (الجامعة الاميركية) جان اسطفان (الجامعة الاميركية) عماد الصلح (الكلية العلمانية).

الشموع وتباينت الآراء وظهر واضحا ان بعض اعضاء اللجنة قد لان وجرى «اقناعه» قبل الاجتماع. فاقترح مندوب الطلبة ان تجتمع اللجنة في مقرها في نادي النجار القريب من السراي لتتخذ الموقف المناسب. فانتقلت اللجنة الى النادي وهناك احتدم الجدل. وانقسم المجتمعون فكان المتصلبون هم مندوب الطلبة ومعه الاقلية في اللجنة من جهة والاكثرية التي «اقتنعت» من جهة اخرى وعندما احس ارباب الحكم في السراي ان كفة المتصلبين قد تتغلب جاء أحدهم خفية الى مكان ملاصق لمكان الاجتماع ومعه بيان بانهاء المقاطعة واخذ من ثم يجمع التواقيع الى ان حصل على تواقيع اكثرية الاعضاء ثم عاد مسرعا الى السراي فلما احس المعارضون ثارت ثائرتهم ونقل مندوب الطلبة الى رفاقه ان هناك خدعة. وما ان وصل مندوب السلطة الى السراي ومعه الورقة وهو يلوح بها حتى اضيئت السراي والمقاهي التي تدور في فلك السلطة وخرجت حافلات الترامواي على خطوطها المتشابكة في ساحة الشهداء واجراسها تدوي كأنها في مهرجان مرح وسرور بغية لفت النظر اليها، وانطلت الخدعة على الناس وبدأوا يضيئون الكهرباء فثار الطلاب وأخذوا يركضون في كل اتجاه واخذوا يصيحون: خدعة، خدعة، المقاطعة مستمرة. واذا بأنوار الكهرباء تعود فتنطفىء وتعود بيروت الى الشموع وقناديل الكاز والحافلات تنكفىء الى مرائبها.

## حل اللجنة وتأليف لجنة جديدة

في هذه الاثناء كان مجلس جمعية التضامن الادبي يترقب من مكان آخر النتائج باهتمام وحذر، وما ان عرف بما حصل حتى بعث ببعض افراده للتفتيش عن اعضاء اللجنة المعارضين وعقدوا اجتماعا فوريا معهم واتفقوا فيه على تأليف لجنة جديدة معارضة للاتفاق الذي اعلن عنه وأصدروا بيانا مضاداً اعلنوا فيه عن



**بعض طلاب الكلية العلمانية يركبون طنبرا في محطة الناصرة امام مدرستهم في اليوم الاول من اعلان المقاطعة. وظهر في الصورة سيارة من التي بدا الناس يستعملونها في «السرفيس».**

استمرار المقاطعة وكان تأليف اللجنة الجديدة على الشكل الآتي: ابراهيم حداد رئيسا، فؤاد عقل امينا للصندوق، الشيخ عبد الرحمن عبد الملك، يوسف سمعان، محمد القرى، طانيوس واكد، سعد الدين فروخ، سليم عقاد، اعضاء وعماد الصلح مندوبا عن الطلبة، واستقبل الجمهور بيان اللجنة الجديدة بحماس كلي. وتداركا لما يمكن ان يحصل بعد هذه النكسة للراغبين في انهاء المقاطعة تألفت لجنة ثانية برئاسة المحامي الشيخ عزيز الهائم رئيس حزب الاستقلال الجمهوري وهو الحزب الذي عرف في ما بعد بمناهضته الانتداب الفرنسي، ولجنة ثالثة برئاسة المهندس حبيب بستاني لتحل الواحدة مكان ما سبقها اذا اعتقلت وتألفت لجنة اسعاف لمساعدة من يقبض عليه من المقاطعين أو يحكم بالسجن والغرامات أو يتعرض لحادث صحي وتأمين حاجته من طعام ودخان وفتح باب التبرعات واعتمدت الصحف التالية النداء والبيرق والسيار لمناصرة اللجنة لنشر الاخبار الصادرة عنها. وكانت النداء اوسع الصحف اللبنانية انتشارا وأكثرها فاعلية في الناس وكان الناس ينتظرونها ليعرفوا اذا كان هناك اضراب ام لا وليعرفوا من هو المخلص في مناهضته الانتداب ومن هم المساير للسلطة والشركات وكان كاظم الصلح وتقي الدين الصلح هما أبرز كتابها. وقد اندفع الناس يتبرعون بسخاء وكان امين الصندوق ينشر يوميا لوائح التبرعات وأذكر بالمناسبة ان الحماس دفع بطالبين صغيرين الى كسر كل منهما (قجته) التي كان يجمع فيها النقود الصغيرة مساهمة منه في التبرع، اما التلميذان المتبرعان فكان احدهما نديم دمشقية الذي اصبح فيما بعد سفير للبنان في انكلترا والثاني رامز شحادة الذي أصبح من كبار التجار في المكسيك.

وأخذ بعض الشباب يطوفون الاحياء لمراقبة من يخالف مقاطعة الاضاءة وسلاحهم (النقيفة)



اعضاء لجنة المقاطعة امام السجن عندما افرج عنهم وهم من اليمين جلوسا: جوزيف سمعان، محمد القرى، ابراهيم الحداد، سليم العقاد وقوفا: عماد الصلح، سليم فروخ، عبد الرحمن عبد الملك احد وكلاء المعتقلين المحامي معضاد معضاد، طانيوس واكد، ميشال المعماري.

وهي آلة صغيرة من خشب ومطاط لرشق المخالفين بالحجارة.

وحدث في احدى الليالي ان رمى احدهم واجهة زجاج منزل سكنه الجنرال هانتزيجر قائد الجيوش الفرنسية في سوريا ولبنان فخرج هذا من بيته وبيده مسدس يفتش عمن حطم زجاجه، فالتقى الشاب الذي بدا وكأنه يمر امام المنزل لتوه وتظاهر بالاسف لما حصل ولما عاد الجنرال الى بيته رجع صاحبنا ليلتقط النقيفة من زاوية الطريق. هذا مثال على ما كان يجري مع بعض المخالفين.

اخذت من ثم اللجنة الجديدة تطوف في الاحياء وتعقد الاجتماعات الشعبية في البيوت لشد العزائم وتقوية الترابط لاجبار الشركة على الرضوخ لمطالب الشعب. ولما اشتد ساعد اللجنة وطالت المقاطعة رأت السلطة انه لا بد من اعتقال اعضائها فاعتقلتهم جميعا وبينهم مندوب الحركة الطلابية وكانوا مجتمعين في بيت السيد سعد الدين فروخ في رأس النبع.

فهبت بيروت في تأييد المعتقلين واضربت الاسواق واشتد ساعد المقاطعة. اما انا فكنت اثناء وجود الرفاق في سجن بيروت الكبير الذي دمرته الحرب اللبنانية الاخيرة قد توصلت الى طريقة سرية للاتصال بالمسجونين يوميا برغم الحيطة التي اعتمدتها ادارة السجن فانقل اليهم يوما بيوم المعلومات عما يجري في المدينة كما طلبت منهم ان يضربوا عن الطعام بقصد اثارة الرأي العام وتشدده في سير المقاطعة، فوافق الجماعة على الفكرة وأضربوا دون تردد، وامتد اضرابهم اياما. وكنا في الخارج نستغل الامر وننشر انباء اضرابهم مجسمة بين الناس وبشكل مثير. وتخوفت الحكومة من مغبة هذا الاضراب عن الطعام. وقلق وزير العدلية السيد احمد الحسيني الطبيب القلب قلقا شديدا، وشاء ايفاد من يتصل بالمضربين لاقناعهم بوقف صيامهم،

ووقع اختياره علي وعلى الصديق سعد الدين فروخ باعتبارنا من اصدقائهم ولنا تأثير قويّ عليهم، وكلفنا بالمهمة وطلب من المحقق الاستاذ يوسف شربل المعروف بتشدده اعطائنا اذنا بدخول السجن للاجتماع بهم. غير انه رفض ان يسمح لنا بمقابلة السجناء الا بحضوره شخصيا ولم نمانع في ذلك وادخلنا مكتب مدير السجن بانتظار مجيء المضربين للاجتماع بهم.

## فشل الوساطة التي ارادها الوزير

ولما دخلوا علينا بدوا بحال من الضعف والهزال اثار اعصابنا اذ لم نكن نتوقع ان يبلغ بهم الحال الى هذا الحد، وقبل ان نبادلهم الحديث بادرنا الرئيس ابراهيم الحداد بالقول انكم خدعتم بتوقع احالة القضية للحفظ بينما الحكومة ما تزال تمارس الضغط علينا ومعالجة الامر بالعنف، فاجبته بانفعال إن ما يجري هو وسيلة خداع تمارسها الحكومة لافشال المقاطعة، وما ان سمع المحقق هذا الجواب حتى ثارت ثائرته واحتج بشدة متوعدا باحالتي على القضاء بتهمة الطعن بالحكومة في حضوره شخصيا ورفض البقاء معنا معلنا وقف المقابلة.

وهكذا فشلت الوساطة التي ارادها وزير العدل وعدنا سعد الدين وانا لمقابلة الشيخ عزيز الهاشم الذي كان ينتظر نتيجة مقابلتنا للصائمين فتخوف الرجل من وعيد المحقق وطلب مني تقديم الاعتذار له ولما رفضت عهد الى المهندس حبيب البستاني لتدارك الامر مع صديقه المحقق ووفق المهندس بتدخله. وبعد اسبوعين من الاعتقال افرجت السلطة عن المعتقلين. ولكن المقاطعة استمرت عدة اشهر.

## حادث يفرض الحكم العرفي

وذات يوم طلبت الشرطة من صاحب مقهى النجار ان يضيء مقهاه بالكهرباء وامنت له الحراسة، فمرت سيارة مسرعة من امام المقهى ورمته بمفرقعة من صنع محلي كانت كناية عن مفرقعة كبيرة الحجم لها دوي كبير، فتخوفت السلطة الفرنسية ورأت في هذا العمل بداية العنف وربما الثورة، فاعتقلت مجددا عددا من اعضاء اللجنة الاولى واحالتهم الى المجلس العدلي بتهمة الاخلال بأمن الدولة وعينت القاضي يوسف شربل محققا عدليا، وهنا دخلت القضية مرحلة خطرة وتخوف الناس من تدابير قاسية تعتمدها السلطة الفرنسية للسيطرة على الوضع كما بدأت مظاهر التفسخ تلوح في افق المقاطعة والملل عند البعض، بعد ان طالت نحو ستة اشهر.

واخيرا بعد مشاورات مطولة اجرتها الحكومة اللبنانية مع المفوضية الفرنسية ثم مع الشركة اعلنت هذه عن بعض التنازلات مستفيدة من تعطيل جريدة النداء لسان حال المقاطعة ومعبئة الشعب البيروتي وراءها ووجود اللجنة داخل جدران السجن وهذا ما ساعد على قبول الشعب المضرب بالتخفيض الذي تم الاتفاق عليه.

وهكذا انتهت اطول مقاطعة وأشدها عنفا في عهد الانتداب الفرنسي في لبنان، ولم تقتصر مكاسبها على تخفيض الاسعار فقط بل على الوقفة الصامدة والتضامن الشعبي الرائع والمثير للاعجاب.

وكان تراجع الحكومة تدريجيا تجاه المعتقلين باخلاء سبيلهم اولا بموجب سندات اقامة ثم احالة القضية للحفظ بعد تجميدها بضعة اشهر.



● «ليس من شك في أن التقدم الذاتي هو في جوهره اعظم أنواع الدفاع عن النفس ضد الأخطار المتربصة، لكن علينا أن ندرك أننا نعيش في منطقة مفتوحة للأطماع الباغية، وإن من أول أهداف اعدائنا أن يحولوا دون بلوغنا مرحلة القوة الذاتية المحققة للتقدم حتى يظل دائماً تحت رحمة التهديد».

**(جمال عبد الناصر)**




# هجرة الطائفة اليهودية من العراق

غادة المقدّم عدرة



ترك اليهود ممتلكاتهم خلفهم في العراق وهاجروا الى فلسطين وقد حملوا معهم العلم والخبرة كما قال اليهودي العراقي رافي نيسان فثلث المهاجرين من يهود العراق تلقوا تعليما لمدة احد عشر عاما على الأقل وهي نسبة تعلو على نسبة القادمين الجدد الى اسرائيل من اوروبا وأميركا.

وكانت الأسر المهاجرة أغلبها مؤلفة من الحرفيين المشهورين وأصحاب المحلات والمدراء والمحامين والمعلمين والموظفين. وهذا يعطي صورة واضحة عن حياة الأقلية اليهودية التي عاشت بسلام واستقرار في العراق.

ولكن ما هو سبب هجرتها؟ ولماذا تركت العراق؟ سؤال يطرح نفسه ولابد من الاجابة عليه بالعودة الى التاريخ. كيف جاء اليهود الى العراق وماذا فعلوا خلال هذه الفترات؟

أتى العبرانيون بالاله يهوه الى فلسطين وهو آله قبيلتهم. ولعل يهوه لم يكن الاله الوحيد ولكنه هو الذي حفظته لنا الرواية اليهودية الدينية. ومن الملاحظ أن الدين اليهودي كما نعرفه هو نتيجة أمرين: الأول تاريخ اليهود السياسي وما عانوه على أيدي الأشوريين والبابليين والفرس. والثاني ظهور الأنبياء بينهم الذين علموهم تدريجياً أن يعبدوا الها واحداً ولكن ثمة عنصراً ثالثاً أضيف عليهما وهو ما اقتبسه اليهود من الأمم التي احتكوا بها من العقائد والأساطير التي تعيشها هذه الشعوب.

وفي عام ١٣٠٠ ق.م. ترك العبرانيون عبيدا تحت سيطرة موسى. وتقول بعض المصادر التاريخية أن المصريين طردوهم لأنهم استولوا على المراكز، وقد وصلوا الى بلاد كنعان، وفي التوراة أن بلاد كنعان أعطاها الله لاسحاق ويعقوب.

وعندما جاء الأنبياء شاوول وداوود وسليمان الحكيم نظموا دولة اسرائيل، وبعد سليمان الحكيم انقسموا الى يهودا في الجنوب واسرائيل في الشمال.

وفي سنة ٥٨٦ق.م. احتل نبوخذ نصر البابلي مملكتي اسرائيل ويهودا واستعبد سكانهما وأخذهما الى بابل. وقد اختلف العلماء في الوقت الذي أرسل فيه نبوخذ نصر على بني اسرائيل فقيل: كان في عهد أرميا النبي ودانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل وقيل: انما أرسله الله على اسرائيل لما قتلوايحيي بن زكريا.

وقد أمعن البخت نصر ــ كما جاء في «الكامل في التاريخ» و «مروج الذهب» في قتل بني اسرائيل وأسرهم وحملهم إلى أرض العراق فأخذ ما وجد في هيكل بيت المقدس من التوراة الى كتب الأنبياء وسير الملوك فوضعه في بئر وقد سبى من بني اسرائيل ثمانية عشر الفا. فتقدم الى مصر

وقتل ملكها فرعون ثم سار نحو المغرب فقتل بها ملوكا وافتتح مدائن. من هنا وجد اليهود في العراق هربا من المجازر وحملات الاضطهاد التي تعرضوا لها خلال العصر القديم وحتى قرننا هذا.

وباستمرار هذه الحملات في اوروبا الشرقية نمت الصهيونية لتقدم مشروعا مؤداه استعمار فلسطين لتحرير الشعب اليهودي من الاضطهاد الذي لحق به. وكان للمشروع الصهيوني لانشاء دولة يهودية في قلب العالم العربي منذ البداية وجهان أساسيان متكاملان:

١ ــ فهو من جهة مشروع موجه ضد حركة تحرر الشعوب العربية.

٢ ــ وهو من جهة ثانية مشروع يعتمد على القوى الاستعمارية التي تمارس هيمنة كبرى على الشرق الأوسط.

ومع تطور الحركة الصهيونية تحولت من حركة دينية تعيش على هبات المحسنين الى حركة سياسية منظمة، فعقد أول مؤتمر صهيوني سنة ١٨٩٧م أقر وجود الحركة الصهيونية على أسس سياسية وأول ما استهدفته انشاء وطن قومي يضمنه القانون الدولي.

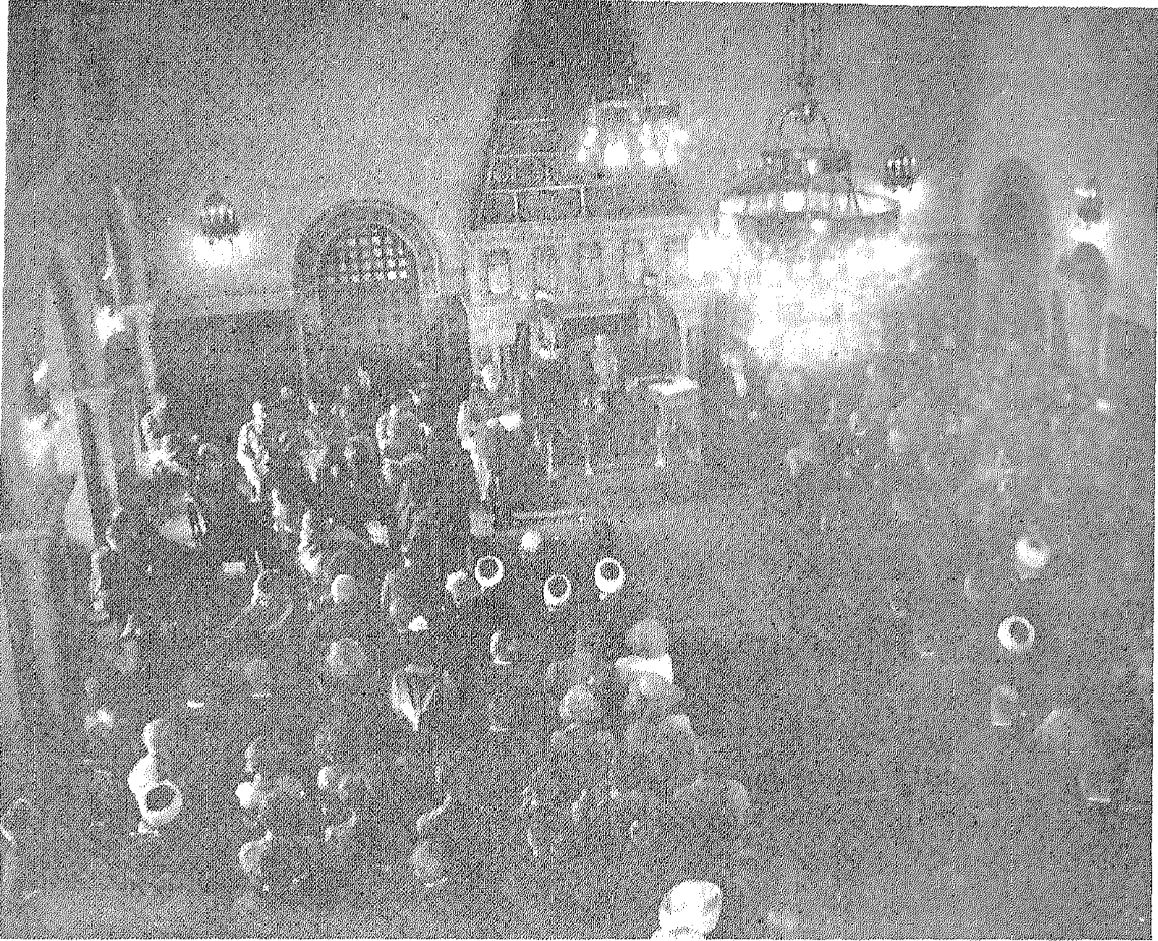
وكان لهذه المقررات ردة فعل عنيفة من قبل الدولة العثمانية قبل نشوب الحرب العالمية الأولى مما أدى الى عاصفة من الجدل والمعارضة حد من النشاط الصهيوني الدعائي والتنظيمي الى أن تم وعد بلفور عام ١٩١٧ وقبلت بريطانيا الانتداب على فلسطين غداة معاهدة فرساي.

وفي كانون الأول ١٩١٦ بدأت القوات الانكليزية الهجوم على بلاد ما بين النهرين فحطمت المراكز التركية والأسطول النهري في كوت العمارة. وتابعت الهجوم حتى سيطرت القوات الانكليزية على جميع بلاد ما بين النهرين تقريبا.

وبعد دخول الانكليز بئر السبع واحتلالهم يافا ثم دخولهم القدس سنة ١٩١٧ كان مصير هذا البلد وبموجب المعاهدات التي عقدت بين الحلفاء الانكليز مرهوناً بنوعين من الالتزامات. فباتفاقية مكماهون ــ الحسين عام ١٩١٥ وعد الانكليز بجعل فلسطين جزءاً من الدول العربية. بينما تعهدوا في الاتفاقية المعقودة مع روسيا عام ١٩١٦ باقامة ادارة دولية في فلسطين، غير أنه بعد احتلالهم لفلسطين لم يكن لديهم الاستعداد لتنفيذ أي من هذين الوعدين بل سعوا بكل قواهم الى ابقاء هذه المنطقة تحت سيطرتهم.

ولتفادي الالتزامات التي تعهدت بها انكلترا قررت استغلال الحركة الصهيونية التي نشطت في نهاية القرن التاسع عشر. وكما قلنا أن الشرق العربي وقع تحت سيطرة المستعمر الفرنسي والبريطاني حيث شدد الانكليز قبضتهم على العراق وحكموه حكما مباشرا في البداية ثم حكما غير مباشر عن طريق الانتداب والمعاهدات الثنائية. وفي الوقت نفسه عقد اتفاق مالي بين العراق وانكلترا كما وقع اتفاق قانوني في عام ١٩٣١ نص على الغاء الامتيازات ووضع نظاما واحداً للعراقيين والأجانب. ثم بعد ذلك انضم العراق إلى عصبة الأمم شرط أن يقدم تصريحا يضمن حقوق الأقليات. على الرغم من ذلك تقدم العراق تقدما كبيرا في عهد الانتداب البريطاني وتحسنت المواصلات وعم الرخاء وكان الجيش صغيرا ولكنه كان مدربا على أيدي ضباط بريطانيين واستمر انتقال الادارة الى أيدي العراقيين من عام ١٩٢٩، ومن المتعذر هنا أن نقدم دراسة مفصلة عن السياس العراقية أثناء تلك السنوات التي سبقت الحرب ويكفي أن نذكر أن البرلمان كان ضعيفاً وأنه قبل تعديل القانون الأساسي لم يكن للملك أي حق في إقالة الوزارة مما أدى بطريقة غير دستورية لاجبار الوزارات على الاستقالة.

وفي هذه الفترة كثرت الخلافات بين الأوساط الشعبية التي كانت قد تغلغلت فيها الدعايات الشيوعية والنازية والفاشية فظهر في العراق اتجاهات متعددة: فئة ترى نظام أتاتورك بتركيا مثلا أعلى ــ فئة ثانية اتجهت نحو النظام النازي نتيجة لردة فعل عاطفية ضد سياسة بريطانيا الاستعمارية وسعيها المستمر في اقامة الدولة



**الانتداب البريطاني على فلسطين**

**المندوب السامي الأول هربرت صموئيل يجمع في دار الحكومة بـ أوغوستا فيكتوريا على جبل الزيتون رؤساء الطوائف من مسلمين ومسيحيين ويهود، ويتلو عليهم صك الانتداب ويوضح أهدافه: وفي مقدمتها «أن الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي...» إلى اخر ما جاء في المادة الثانية من الصك. ومن اهدافه ايضا «الاعتراف بهيئة يهودية مناسبة كهيئة عمومية لتشير وتعاون في ادارة فلسطين...» الى اخر ما جاء في المادة الرابعة... وقد نفذ صك الانتداب اعتباراً من ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٣.**

اليهودية بفلسطين على حساب حقوق أبنائها ــ وفئة ثالثة تعلقت بالفلسفة الماركسية ونظامها الاجتماعي فأصبحت لا تتحمل الأوضاع الاقطاعية في العراق لهلهلة الحكم فيه وتعاقب الوزارات عليه مرة كل ستة أشهر على الأقل. ومن سوء الحظ أن النتيجة الطبيعية لذلك كانت ازدياد الدور الذي يلعبه الجيش العراقي في السياسة فظهر هذا في سنة ١٩٣٦ عندما قام الجيش بقيادة الجنرال بكر صدقي بانقلاب وأرغم وزارة الجنرال ياسين الهاشمي على الاستقالة بتهديد لضرب بغداد من الجو. وقد حل البرلمان وفر كثير من زعماء العراق وسيطر الجيش على البلاد لمدة قصيرة ثم اغتيل بكر صدقي في آب ١٩٣٧ وسقطت الوزارة الصورية التي كان يرأسها حكمت سليمان.

هذا بالنسبة للوضع العام في العراق، ولكن ما هو دور يهود العراق وكيف كانوا يعيشون؟

كانت خطة نقل اليهود المشتتين في أنحاء العالم، تتخذ شكلا عنيفا، وقد وصف «ستون» احد الجوانب الهامة في الصهيونية بقوله ان الحركة الصهيونية تترعرع على مآسي اليهود أي عندما لا يوجد العدد الكافي من الكوارث فان

الواقع يتم تغييره ليتفق مع الرؤية وهذا تقريبا ما حدث ليهود العراق.

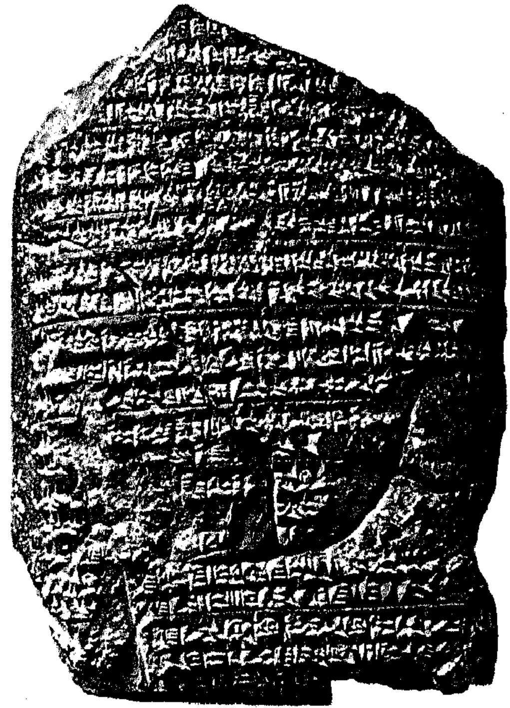
ولا يعني ذلك أن يهود العراق كانوا يعيشون حياة مثالية ولكن كان عدد كبير منهم يتمتع برخاء نسبي لاجتهادهم بنشر العلوم والمعارف وعدم تدخلهم بالشؤون السياسية وقد قالت جريدة العالم الاسرائيلي: ان الاسرائيليين في بغداد تمثال للسعي في هذه البلاد وأنك لتراهم جميعا صغيرا أم كبيراً يدأبون ليلا ونهارا في تحصيل العلوم والمعارف ولا أغالي إذا قلت أنك تكاد لا ترى في هذه الطائفة أميا فضلا عن أن لكل عائلة غنية شخص أو أكثر يدرس أو يتاجر في بلاد المغرب.

كانت مدارس الاليانس الاسرائيلية تدرس اللغة الفرنسية بكل ضبط واتقان وقد ازدادت ازديادا عظيما في المدة الأخيرة حتى أنه في سنة ١٩١٢ كان في مدرسة الاليانس في الموصل ٣٥٠ طالبا وفي بغداد ٢٤٠٠. وهذا يوضح أن نسبة قيد الصغار من يهود العراق في المدارس والكليات أعلى بكثير من النسبة العامة في البلاد.

اما فيما يتعلق بالمشاركة في الحكومة فقد أعلنت الحكومة العراقية حرية الدين والتعليم والتوظيف ليهود بغداد الذين لعبوا دوراً هاماً للغاية في تحقيق رخاء المدينة وتطورها. وكان هناك ستة أعضاء يهود في البرلمان العراقي وعلى الرغم من هذا السلام والاستقرار اللذين كانت تتمتع بهما الأقلية اليهودية قرر الصهاينة جعل العراق هدفا محتملا لخطة الاستيطان الصهيوني الأمر الذي كان كافيا في حد ذاته لاثارة التوتر بين أغلبية السكان والأقلية اليهودية، وعندما اقتصرت المخططات الصهيونية على فلسطين تحولت الصهيونية عن أرض العراق وتركزت على يهود العراق، فأسس أهارون ساسون سنة ١٩١٩ جمعية في بغداد تدعى «اللجنة الصهيونية» وانشأت هذه المنظمة فروعا لها في عدة مدن عراقية نحو ١٦ فرعا بل أرسلت وفدا عنها الى المؤتمر الصهيوني الثالث عشر الذي عقد في سنة ١٩٢٣. كما قامت بتنظيم جماعات لاعداد الشباب المهجرين، وقامت بطبع عدة نشرات شهرية بالعبرية والعربية وأسست مكتبة صهيونية. وكان الصهاينة يقومون احيانا بتسميم العلاقات بين يهود العراق وباقي الشعب العربي العراقي بتوزيع منشورات في المعابد تحتوي على شعارات مثيرة «لا تشتروا من المسلمين» متعمدين أن تصل هذه المنشورات الى أيدي المسلمين». ونجحت الدعاية الصهيونية الى حد ما، في بذر الشقاق وكما أشار السفير البريطاني في برقيته السرية سنة ١٩٣٤، وبين أن منع النشرات الصهيونية من الصدور قد يكون في «صالح اليهود أنفسهم». كما قال السفير البريطاني في بغداد، انه ليس هناك عداء طبيعي بين اليهود والعرب في العراق، ويبدو أن تقريره كان دقيقا، فيهود العراق كانوا مؤمنين بأنهم عراقيون أساسا، يرجع نسبهم الى أيام النفي البابلي،وكان عدد كبير منهم يتمتع برخاء نسبي.

وفي الأربعينات كان المجتمع العراقي يمر بمرحلة انتقالية وكانت هناك صعوبات تكتنف حياة جميع الأقليات الدينية أو العراقية هناك بما فيها الأقلية اليهودية، وفي سنة ١٩٤١ قامت مظاهرات معادية للجالية اليهودية وان كانت «الأولى من نوعها» كما تقول موسوعة «الصهيونية واسرائيل»، وعلى الرغم من ذلك استأنف اليهود العراقيون ـــ بجذورهم الثابتة في البلاد ـــ حياتهم الطبيعية، فأقاموا حيا يهوديا واستثمروا مبالغ ضخمة في مجال البناء في مدينة بغداد. فقد جاء في كتاب لمؤلفة اسرائيلية «أن المبعوثين الصهاينة في العراق أدركوا ان الأيديولوجية الصهيونية لن تلقى قبولا في معظم الدوائر اليهودية». وقد حاول أحد هؤلاء المبعوثين تجنيد اتباع من بين المثقفين، إلا انه فشل. ثم جاء قيام الدولة الصهيونية والهزيمة العربية الأمر الذي أدى كما هو متوقع الى تعقيد الأمور بالنسبة للجميع فقد أعفي اليهود العراقيون الذين كانوا يتولون مناصب تتطلب الاتصال بدول أجنبية من مناصبهم. وباستثناء مثل هذه الحالات، فان رد الفعل العراقي كان يتسم بضبط النفس إذا ما نظر إلى أبعاد الموقف.

وقد كان من الممكن أن تنتهي المتاعب سنة ١٩٤٨ وان يتابع يهود العراق حياتهم، وكان الزمن كفيلاً يجعل الجروح تلتئم، غير أن الصهاينة كان لديهم مخطط مختلف عن هذا، فقد كانت هناك خطوات أساسية للوصول إلى



**نقش محفور يبين كيف احتل نبوخذنصر مدينة القدس عام ٥٩٨ق.م.**

خلاص مائة وثلاثين ألف يهودي ولزيادة عدد السكان في اسرائيل.

وفي سنة ١٩٤٢ تأسست منظمة سرية باسم «حركة الرواد البابليين في العراق» كانت مهمتها تعليم الشبان اليهود استخدام الأسلحة وصنع المتفجرات. وبذلك تكون حركة مستقلة لها أسلحتها ومجندوها داخل العراق. وقد كتب ايجال آلون سنة ١٩٤٧ أن تهريب الأسلحة الى العراق هو لتشجيع كل أشكال الهجرة.

ولكن يتبادر الى الذهن هذا التساؤل ما الهدف من كل هذه الأسلحة التي عثر عليها فيما بعد؟ هل سيحارب العراق؟

وللرجوع الى التاريخ نذكر عدة حوادث حصلت في بغداد سنة ١٩٥٠ فقد وضعت متفجرة داخل مقهى يجتمع فيه عادة اليهود، كما ألقيت متفجرة في معبد ماسودا شيمتوف وقد أدى الحادث إلى موت طفل يهودي وفقد أحد اليهود عينه. وقد صورها الصهاينة يومها على أنها مذبحة ضد اليهود، ولكن أظهرت الحقيقة بعد ذلك المخطط الصهيوني الذي نظم هذه الأعمال التخريبية.

وفي سنة ١٩٥١ أي بعد الانفجار الذي حصل في المعبد رأى لاجىء فلسطيني من عكا أحد الضباط العسكريين الاسرائيليين في بغداد، فأبلغ اللاجىء الشرطة عن الضابط الاسرائيلي الذي تم القبض عليه وعلى خمسة آخرين من أعضاء المنظمة السرية الصهيونية وقد فضح المخطط الصهيوني وأخبر الشرطة العراقية عن مخابىء الأسلحة في المعابد. كما حوكم هؤلاء باثارة ذعر اليهود العراقيين لدفعهم للهجرة الى اسرائيل وقد كانت الأدلة واضحة وقوية حين أنه لم يستطع أحد أن يمنع صدور حكم الاعدام على اثنين من هؤلاء العملاء وبالسجن على الباقين، وقد حاول المواطن الاسرائيلي واليهودي العراقي الذي فقد عينه في حادث معبد شيمنوف أن يحصل على تعويض من الحكومة الاسرائيلية.

من هنا نرى الصهيونية وارهابها المعروف الذي تمارسه على الأقليات اليهودية في العالم العربي والعالم أجمع لحملهم على الهجرة لوطنهم القومي المزعوم.

ونخلص الى القول ان اليهود في العراق لم يتركوا بغداد ويهاجروا الى فلسطين لولا ممارسات الصهيونية وافتعالها لأحداث دفعتهم للهجرة. ذلك أن التاريخ أثبت عيشهم بسلام واستقرار داخل العراق كأي مواطن عربي له جميع حقوق المواطن. ●

## المراجع:


- واشنطن بوست ١٩٧٦.
- ليلينتال، ما ثمن اسرائيل؟
- ستون، نحو معالجة جديدة للصراع العربي الاسرائيلي في سميث الصهيونية.
- الحلم والواقع.
- موسوعة الصهيونية واسرائيل، ج١، الصهيونية في العراق.
- دوغلاس غرين من النفس البالي الى رامان جان اسرائيل ديجست.
- الموسوعة اليهودية، العراق.
- المربرجر، من يعرف أكثر من هذا فليتكلم.
- العالم الاسرائيلي، بيروت ١٩٢١.
- عالم المعرفة الأيديولوجية الصهيونية وهو من أهم المراجع التي استعنت بها.
- وثائق فلسطينية.

## تقرير موقّع من لويدجي غبريللي:

# الطائفة اليهوديّة في العراق

يبلغ تعداد الطائفة اليهودية في العراق ما يقارب مئة ألف يهودي[1] يسكن معظمهم بغداد ما يقارب الثلثين، والثلث الباقي موزع في المدن المهمة مثل البصرة والموصل، ويعيش عدد لا بأس به من اليهود في كردستان المتاخمة لايران وتركيا موزعين في القرى الجبلية ويعملون في الزراعة.

للطائفة اليهودية قانونها الخاص بما يتعلق بالأمور الدينية التي يديرها المجلس الملي (المذهبي) وأما ما يتعلق بالأمور المدنية فيطبق قانون البلاد على اليهود كما يطبق على كافة المواطنين.

ان القانون العراقي الذي أعطى اليهود هذا التنظيم يعود لسنة ١٩٣١ (كما كان أيام العهد العثماني الذي أعطى هذه الطائفة التمتع بالهيكلية الحاخامية) كما كانت الطائفة مقسمة حسب المقاطعات وكل مقاطعة لها رئيس حاخام ومجلس عام ومجلس مدني وفي بعضها مثل بغداد كانت تدار بمجلس روحي.

والمجلس العام في بغداد يرأسه رئيس الطائفة العبرية ويتألف من ستين عضوا، ستة من رجال الدين وأربعة وخمسون مدنيا، أما في المجموعات الأخرى فيتألف من أربعين الى خمسين عضوا وهذا يهتم بالمسائل العقائدية والرعاية الروحية ومراقبة الحاخامين.

يوجد في بغداد محكمة دينية اسرائيلية تتألف من ثلاثة أعضاء من المجلس الروحي وتنظر هذه المحكمة في كافة الدعاوى العائلية الأرثية وكذلك يوجد (Apel) مؤلفة من جميع أعضاء المجلس الروحي وتحت رئاسة كبير الحاخامين الذي ينظر في استئناف كل القرارات التي تؤخذ في المجلس الديني، فالمجلس المدني تقتصر نشاطاته على مراقبة ادارة الأوقاف والأعمال الخيرية والتفتيش الدوري على المعاهد المدرسية والخيرية ومراقبة الميزانيات وتعيين موظفين في كافة الادارات ومراقبة الكنيست والمدافن وكذلك على المسالخ وأماكن بيع اللحوم. ان ميزانية كافة المؤسسات للطائفة العبرية في العراق وصلت في (٣٥ ــ ٣٦) بالدينار العراقي أي ما يساوي باللير الايطالي ٣٢ مليون لير تقريبا.

فالقسم الأكبر يأتي من ضريبة خاصة يدفعها كل عضو في الطائفة لكل كيلو لحمة يشتريها بالاستهلاك (لير ايطالية لكل كيلو) وقد أصدر المجلس المدني قراراً بزيادة هذه الضريبة مما دعا اللحامين الى اضراب عام لبائعي اللحوم.

**المعاهد**: في بغداد الطائفة الاسرائيلية تملك مدارس حديثة للصبيان (أسسون، شمش، (Noam)، (Nurael)، راشيل شمعون، مسعوده، سلماه، كرم وغيرها من المدارس الدينية، بلغ عدد الطلاب في هذه المدارس خلال عام ١٩٣٤ ــ ١٩٣٥ ستة آلاف طالب، أما مدارس البنات وعددها اثنتان، واحدة اسمها لوار خدوري ونعام بلغ عدد طالباتها ١٨٩٣ طالبة وعدد المدرسين بلغ مئة وثمانين، ويوجد أيضاً معاهد تربوية خاصة يؤمها حوالي ستة آلاف. وقد بلغت ميزانية المدارس العبرية لعام ١٩٣٥ ــ ١٩٤٦ (١٩,٥٠٠) دينار عراقي (الدينار = جنيه استرليني).

**المستشفيات**: ان المؤسسات الصحية التي تديرها الطائفة هي مستشفى مآير الياسر ومستوصف ريما خدوري وصيدلية دار الشفا ويوجد العديد من المستوصفات المدرسية وقد بلغت ميزانيتها لعام ١٩٣٥ ــ ١٩٣٦ ثمانية آلاف وخمس وأربعين ديناراً عراقياً وأغلب الكشوفات الطبية التي تجري في هذه المؤسسات هي مجانية.

**المؤسسات الخيرية**: الجمعية الأكثر أهمية هي جمعية مساعدة وتربية (الشاكي) التي يديرها



الارهاب البريطاني في القدس

معهد الشاكي والتي أسسها السيد ايلي قدوري من أصل عراقي وقد توفي حديثا وهذا جمع التبرعات من انكلترا — فرنسا — تركيا — العراق والشرقين الأدنى والأقصى. كما يوجد مؤسسات عبرية أخرى مثل جناح الأمومة في مستشفى ماير الياس ومدرسة الخياطة والتطريز للبنات الفقيرات ومدرسة مهنية مجانية تجمع حوالي ٣٥٠ طالباً.

**المعابد**: عددها ٤٠ في كل العراق، والاثنان الأثريان يرجع تاريخ الأول الى القرن الخامس قبل الميلاد والقرن السابع، وكنيسة الشيخ اسحاق الى القرن الخامس.

**الحجاج الاسرائيليون**: كان لليهود أيام الحكم العثماني في مقاطعة بغداد ثلاث أماكن للحج هي:

**أولاً** — قبر النبي يوشع بن نون — ويقع في وسط مدينة بغداد والأتراك يعتقدون بأنه شخص مبجل للمسلمين واسمه الشيخ جنيد ويدعون بأنه مدفون في هذا المكان ويجلسون بقرب المدفن، وبعضهم يحاول منع اليهود الاقتراب منه.

**ثانياً** — قبر النبي اسحاق (Ezechielle) في القفل على بعد ثلاث كيلومترات من مدينة الحله جنوب بغداد وقد بنى الاسرائيليون العديد من المقابر والبيوت والعديد من المراكز الأخرى يأتون إلى الحج كل سنة بعد عيد الفصح.

**ثالثاً** — الأزر: على الضفة اليمنى من دجلة وبين المرو والقرنة نقطة تلاقي دجلة والفرات.

ومن الملاحظ أنه لا يوجد في العراق أية صحيفة عبرية ويوجد في بغداد مجلة لها صبغة سياسية ينشرها محامي يهودي في العاصمة اسمه أنور شاوول وهو عنصر معاد لوجهة نظرنا وكذلك معاد للنازية الالمانية، كما ان بعض اليهود يكتبون دورياً في الصحف العربية المسلمة ولكنهم لا يوقعون المقالات بأسمائهم بل بأسماء مستعارة، أما المنشورات باللغة العربية حول المسألة اليهودية فليست ذات أهمية وقد نشرت مؤخراً: أولا: تاريخ العبرانيين في العراق ليوسف غنيما كاتب مسيحي كلداني وهو حالياً مدير البنك الوطني للزراعة. وكان عضواً في المجلس النيابي ووزيراً للمالية أكثر من مرة.

الفلاسفة العبرانيون والاسلام للشاعر والأديب المسلم رضا شبيبي رئيس مجلس الشيوخ من أعيان الشيعة ووزير التربية الوطنية.

— تاريخ اسرائيل لموسى شهبندر حالياً السكرتير الأول للبعثة العراقية في برلين، وإذا دققنا في اليهود العراقيين نجد العوامل نفسها لليهود الذين يعيشون في فلسطين من أجيال قديمة وعديدة هؤلاء (يعني يهود العراق) امتزجوا مع الشعب ويتبعون العادات والتقاليد وكثيرون منهم لا يلبسون الطقم. وفي العراق

R. Legazione d'Italia
BAGDAD

R. MINISTERO DEGLI AFFARI ESTERI
ROMA

Telespresso N. 665/173

Bagdad, 20 Aprile 1937-XV

COMUNITA' ISRAELITICHE IN IRAK

La comunità israelita in Irak ammonta a circa 100.000 persone, di cui due terzi circa a Bagdad ed il rimanente negli altri centri più importanti come Bassora e Mossul. Un numero considerevole di ebrei vive nel Kurdistan ai confini della Persia e della Turchia sparso in villaggi montani e dedito per lo più all'agricoltura.

Le varie comunità ebraiche hanno leggi che disciplinano i loro Consigli e l'amministrazione dei loro affari religiosi; ma - a parte ciò - sono sottomesse, come tutti gli altri cittadini, alle leggi del Paese.

La legge irakiana che stabilisce la condizione giuridica degli ebrei in tutto il territorio dello Stato data dal giugno 1931; con essa la comunità ebraica (che sotto il regime ottomano era regolata dagli statuti rabbinici) viene ad essere divisa in distretti ciascuno dei quali ha un presidente, un capo rabbino, un Consiglio generale e un Consiglio laico. In alcuni, come in quello più importante di Bagdad, funziona anche un Consiglio Spirituale.

Il Consiglio Generale di Bagdad è presieduto dal Capo della Comunità ebraica dell'Irak e composto di 60 membri, di cui sette religiosi e 54 laici; quello delle altre comunità da 20 a 40 membri. Esso si occupa per lo più di questioni dogmatiche e di assistenza spirituale alle varie comunità oltre che della sorveglianza sui rabbini. A Bagdad funzionano pure un Tribunale Religioso Israelita composto di tre membri del Consiglio Spirituale dinanzi al quale sono portate tutte le cause concernenti i diritti familiari e patrimoniali; ed una Commissione d'Appello, formata da tutti i membri del Consiglio Spirituale, sotto la presidenza del Gran Rabbino, che giudica in seconda istanza su tutte le decisioni prese dal Tribunale Religioso.

Il Consiglio laico invece estende la sua attività al controllo della amministrazione dei beni Waqfs e dei lasciti per opere di beneficenza, all'ispezione periodica degli istituti scolastici e di carità, al controllo dei loro bilanci, alla nomina degli impiegati delle varie amministrazioni e in genere alla sorveglianza sulle sinagoghe, sui cimiteri e sui locali addetti al macello del bestiame.

Il bilancio delle varie Istituzioni delle Comunità ebraiche in Irak si è aggirato nell'anno 1935-36 in dinari irakeni 24.500 pari a lire italiane 32.000.000 circa; la maggior parte delle entrate proviene da una speciale tassa che viene pagata da ciascun membro delle comunità per ogni Kg. di carne acquistata per il consumo (una lira italiana per ogni kg.). Un decreto del Consiglio Laico che aumenta questa tassa ha provocato ultimamente un grave sciopero dei macellai ebrei.

SCUOLE

A Bagdad la Comunità israelita possiede nove scuole per ragazzi (A. Sasson; Shamash, Noam, Nurael, Rashel Shamun, Watania, Masuda Salman, Karm, Menasci Saleh) oltre 4 scuole religiose. La popolazione scolastica si aggirava nel 1934/35 sui 6.000 studenti. Le scuole femminili sono due: (Laura Kaduri e Noam) con 1893 studentesse.

I-36
13

./.

الصفحة الأولى من المخطوطة.

يحترم الدستور الحرية الدينية فغياب تأثير المهاجرين اليهود، وكذلك النقص في عدم تأثير الدعاية الصهيونية مع الأخذ بعين الاعتبار أن العرقين العربي والعبري هما بنفس المستوى ويخضعون لنفس القانون وهذا ما يجعل الحياة بينهما سهلة كما كانت في أيام الحكم العثماني في ولاية ما بين النهرين. إن تعاطف اليهود العراقيين لطبيعة انتمائهم ممكن أن يكونوا جميعهم صهاينة، ولكن سواء من الخوف في إظهاره في الحسابات التي قاموا بها بعدم مصلحتهم المساهمة في اظهار القضية. والقضية الفلسطينية تتمثل بصفة أيديولوجية، فأغلبية اليهود العراقيين الذين يعيشون مع القيادية الاسلامية السنية ويتعاملون مع كبار وصغار التجار والذين لا يسألون ماديا.

اليهود العراقيون يتحدرون من أصل سامي خالص وجميعهم بصورة عامة نشطون وحيويون وصابرون ورأسمالهم يسمح لهم بالاستفادة من جميع الفرص المهمة والمثمرة وجميعهم متمسكون بطقوسهم الدينية وبعاداتهم حتى السخيفة منها.

هذه الجالية الاسرائيلية لها أهمية اقتصادية ومالية وبصورة خاصة بحالتها الاجتماعية وهي تتحكم تقريباً بجميع العمليات التجارية والمصرفية ولها تأثير كبير على الحياة السياسية للبلاد. فهي تملك أحسن المحلات التجارية وجميع البنوك الخاصة والمعروفة ومحلات الصيرفة وقطع الغيار وهم يتقنون جميع المهن ويسيطرون عليها، وتتوقف الحياة التجارية والاقتصادية في المدينة يوم السبت وفي المناسبات الدينية. أما في الادارات العامة فليس لهم وجود تقريبا. وفي مجلس الشيوخ فهم ممثلون بتاجر غني من عائلة عراقية عريقة كان عضوا في البرلمان العثماني، وفي مجلس النواب كان لهم في أغلب الأحيان أربعة أعضاء وفي الوزارات بعض الموظفين وفي المحاكم بعض القضاة، ولكن أهميتهم وتأثيرهم تأثير اقتصادي ومالي في الأعمال الجيرية.

ميولهم السياسية غير محددة بخط معين وبصورة عامة نادرا ما يهتمون بالمشاكل التي تتعلق بالحياة العامة ولا يحاولون التأثير أو الجدل في الأشياء التي تختص بالعلاقات الدولية وخصوصاً بعلاقات الشرق الأدنى وذلك لاقتناعهم أن هذه السياسة تلفت النظر اليهم ولا تتعلق بهم مباشرة وهم يبحثون بطريقة للعيش بسلام بقدر المستطاع. الذي يهمنا من هذه المسألة دراسة العامل الاقتصادي وطريقة تنميته ويمكن تحديده بنظرتنا الى نشاطاتهم (فقط المشكلة العبرانية بمعناها العام لكي نتفحص الأهمية الاقتصادية من نشاطاتهم) أن المشكلة العبرانية تهمنا من الناحيتين العنصرية والدينية ومن ثم تأثيرهما أو مظاهرهما السياسية التي لا تتركهم مبالين ولا يتركون مناسبة للاعتراض على الدول التي لها ميول ضد اليهود والمساعدة بجمع المال من محيطهم.

إن التعاطف الذي يبدونه نحو انكلترا حيث يتذكرون ان الادارة البريطانية أعطتهم معنى للحرية والعدالة التي لم يتعرفوا عليها من الحكومات المتتالية للباب العالي ولا من سياسة حكم الدول المنتدبة في فلسطين التي ادعت الى الوفاق بين العرب واليهود بينما هي في الواقع عقدت الأمور وساءت العلاقات أكثر بدلاً من تحسينها. وطبيعي الاستنتاج من هذا الموقف أن اليهود يتبعون هذه الحكومة بسلام وهذه الحكومة تأخذ توجيهاتها مباشرة من لندن وقد ظهروا معارضين للفاشية الايطالية وهذا الشعور هو نفسه ما يظهرونه لالمانية النازية وللأنظمة الديكتاتورية ومن ثم وجدت الدعاية الروسية لدى الأكثرية اليهودية أرضاً خصبة للتأثر بها والتي انتشرت بطريقة غير مباشرة في الصحف الاسلامية كما وصلت الى بعض أعضاء الحكومة.

●

**الوثيقة مصورة من الأرشيف المركزي الايطالي:**
ARCHIVIO CENTRALE DELLO STATO, Serie: MINISTRO DELLA CULTURA POPULARE.
Reg. N° 467 Busta 226 Fase. 31.

## الهوامش

(١) تشير الاحصاءات التي وردت في أغلب المراجع مثل منديس الهجرة العراقية والحكومة الاسرائيلية، ان تعداد اليهود في العراق يبلغ ١٣٠,٠٠٠ نسمة.

معهد الانماء العربي

# جذور الاقليمية الجديدة

د. نديم البيطار

الدراسات الاقتصادية والسياسية

# كيف تمّ اغتيال كنيدي

كان مستشفى باركلاند ميموريال، عام ١٩٦٣، أكبر مركز طبي في دلاس، اذ كان يضم أكثر من ستمائة سرير، وكان جناح الاسعاف يعالج فردا واحدا، على الأقل، كل خمس دقائق. ولم يكن ثمة ما يبدل من روتين عمله الصباحي، في صباح الجمعة، ٢٢ تشرين الثاني. وكانت مسز آن فرغوزن مكلفة بتلقي المخابرات على خطوط المركز الثاني. وقلت المخابرات وقت الفطور، فراحت تتصفح إحدى المجلات.

فجأة صدرت إشارة حمراء، وأخذ الزر الأحمر يؤشر دون توقف. وتلقت مسز فرغوزن الرسالة التالية «٦٠١ قادمة، استعدوا». كان واضحا، ان سيارة رئيس الولايات المتحدة جون فيتزجرالد كنيدي، قادمة في حال طارئة قصوى.

كان الرئيس قد قدم دلاس، المحطة الهامة جدا في رحلته الى تكساس. اضاف المتحدث على الهاتف بصوت يفعمه التأثر: «الرئيس جريح، جريح» وأقفل الخط.

كانت سيارة الرئيس «لينكولن» ضخمة مكشوفة، زرقاء، تزن أكثر من أربعة أطنان، ذات محركات مضاعفة القوة. وكان بيل غرير، السائق المختص منذ خمسة وثلاثين عاما، يقودها باتقان فائق، فلم يحتج الى اكثر من ست دقائق لبلوغ المستشفى. وكانت حال الرئيس، في ما بدا، ميئوسا منها. كان يرقد دون حراك، ممددا على المقعد الغارق بدمائه. وكان الحاكم كونالي مجروحا جرحا خطيرا، ولكنه لم يفقد الوعي.

كانت الفوضى قد بلغت شأوها خلال ثوان. ولكن حاملي النقالات استطاعوا حمل الجريحين في اللحظة التي بدأت فيها سيارات المرافقين تصل، الواحدة بعد الأخرى، ويتدفق الشرطة ورجال الصحافة، والمباحث الفدرالية، وقد انتشروا جميعا في اروقة المستشفى.

كان الطبيب المناوب شارل كاريكو اول من فحص الرئيس كنيدي. كان جسد الرئيس هامدا، وبؤبؤا عينيه جامدين متسعين، ولم يكن يتنفس. كان جثة او على وشك ان يكون جثة. وقد انقطع النبض. غير ان القلب، بين الحين والحين، كان ينبض نبضة ثم يهمد.

وصل الجراح مالكولم بيري، فخلع سترته، ووضع قفازيه دون ان يغسل يديه، وبعد فحص صامت قصير، بدأ يصدر اوامره.

بُدئت عملية نقل الدم، وشق الحنجرة في محاولة لجعل الجريح يتنفس، واخذ يمسد القلب، خارجياً بحماسة بالغة. واستعان بالصدمات الكهربائية، ولكن مقياس نبض القلب استمر في الاشارة الى ان القلب لا ينبض.

كانت الساعة الواحدة حين خرج بيري يشهق وينتحب، اقترب الدكتور بوركلي، طبيب الرئيس الخاص، من جاكلين كنيدي وقال: «مات الرئيس». بعد دقائق من ذاك، كان العالم كله على علم بالنبأ الفاجع.

## صعود آل كنيدي

يمكن القول إن مصير كنيدي الفاجع، هو مصير عائلة كنيدي كلها. ففي القرن السابق، ترك اجداد كنيدي ايرلندا جائعين، وقدموا الى اميركا مع قوافل القادمين الذين لم يكن احد يرغب في قدومهم. فقد كان السكان المحليون ينعتون كل وسخ او حقير بالايرلندي. وكان على القادمين، ليبقوا على قيد الحياة ان يبلغوا غرب اميركا، او القبول بأجر تافه جدا. وقد بقي آل كنيدي في انكلترا الجديدة. غير ان جوزيف كنيدي، استطاع تحقيق ثروة كبيرة، في صفقات جريئة وانصرف الى بيع المشروبات الروحية. وقد اصبح صاحب مصرف وهو في الخامسة والعشرين.

ولد جون فيتزجرالد كنيدي في ٢٩ ايار ١٩١٧. وقضى طفولته في بوسطن. في ذلك الوقت، لم يكن الغني الايرلندي يستطيع اقتحام الطبقة البلوتوقراطية المنعزلة على نفسها، المسيطرة على المدينة. كان يعد «ايرلنديا وسخا». وكانت هذه العبارة ترددها العائلات المهيمنة: «آل لويل لا يتحدثون الى غير آل كابو، وآل كابو لا يكلمون إلاّ الله».

في الثالثة عشرة ارسل جون الى مدرسة داخلية في كنكتيكات. وقد سمح له تفوقه بالانتقال من هارفارد، الى جامعة «لندن سكول اوف ايكونوميكس». ثم قام برحلة الى اوروبا دون هدف محدد. وعام ١٩٣٧، عين روزفلت اباه سفيرا في لندن، وكان ابوه ديموقراطيا متحمسا يدعم روزفلت. وقد احدث التعيين صدمة في بوسطن. ورحلت عائلة كنيدي الى لندن. فاغتنم جون الفرصة ليقوم برحلات اخرى، فزار بولونيا، وتركيا، وفلسطين، والمانيا الهتلرية. وعام ١٩٤٠ استدعي ابوه الى الولايات المتحدة، بعد مواقف سياسية خاصة!.

التحق الابناء بالجيش بعد حادثة بيرل هاربر. وقد قضى الابن جو، مع طائرته، صيف ١٩٤٤. وكاد جون يقضي حين هاجم الطراد الياباني اماجيري، البارجة التي كان يقودها، وذلك في ٢ آب ١٩٤٣، قرب جزر سليمان. وقد جرح، وبقي في البحر ١٤ ساعة، واستعان باثنين من بحارته حتى بلغ احدى الجزر، واستقر فيها سبعة ايام حتى جاء من ينقذه.

عمل بعد الحرب مراسلا صحفيا. وعام ١٩٤٦ اختير عضوا في الكونغرس عن الدائرة الحادية عشرة في ماساشوتس. وكان عمره ٢٩



كنيدي محمولاً على الأكتاف

عاماً. وجدد الناخبون انتخابه عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٠. وقد تميز بمواقف «اجتماعية» ولكنه حرص على التقيد بسياسة الرئيس الديمقراطي ترومان. ورشح نفسه ضد المرشح المعروف كابوت لودج الذي لم يكلف نفسه عناء القيام بحملة ضد كنيدي، وكان أن ربح كنيدي بفارق ستمائة ألف صوت. لقد اكتشفت اميركا حيواناً سياسياً ذا دم بارد. كان جسمه جسم بلاي — بوي، وكان يبتسم دائماً، ولا يقوى على اخفاء جشعه الى منصب الرئاسة.

عام ١٩٥٣ تزوج جاكلين بوفيي. وقد كللهما الكاردينال كاشينغ. وكانت السنوات التالية صعبة، اذ ان آثار الجروح التي اصيب بها في الحرب، استدعت لجوءه الى الراحة، والعناية الدائمة، وعملية في النخاع الشوكي، عام ١٩٥٥، وقد طالت مرحلة عودته الى العافية. لذلك اضطر الى لبس مشد لم يفارقه حتى قتل. وقد اغتنم فرصة الراحة ليكتب كتابه «بروفيل ان كارج» الذي فاز بجائزة بوليتزر.

استأنف نشاطه السياسي بحزم. ولكن مواقفه السياسية صدمت بعض مراكز القوى، مما حرمه ان يصبح نائباً للرئيس. ولكنه كسب الرأي العام الأميركي. وقد استعان بفريق عمل ممتاز: اخيه روبير، وسالنجر، وكاتزنباك واعد قانون تموز ١٩٦٠، في لوس انجلس. وقد نجحت جهوده اذ اختاره الحزب الديموقراطي مرشحاً للرئاسة. وكانت حملته ضد المرشح الجمهوري ريتشارد نيكسون صعبة جداً، ولكن كنيدي الحاذق استطاع التقرب من الأميركيين، وكسب الرأي العام، وقد فاز بالرئاسة بفارق مائة الف صوت، من اصل ٦٨ مليون ناخب.

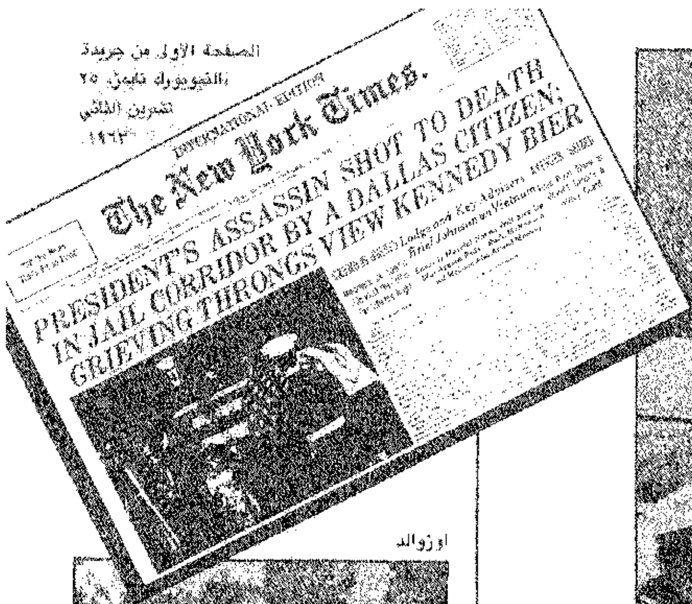
في خطابه المؤرخ ٢٠ كانون الثاني ١٩٦١ اطلق الشعار التالي: «لا ما يمكن ان تصنعه بلادكم لكم. ابحثوا عما يمكن ان تفعلوه لبلادكم».

اعترضته صعاب داخلية وخارجية. ومنها تسجيل الطالب الأسود ميريديث في جامعة ميسيسيبي بقوة الحراب. وميزانية الجيش الضخمة، وميزانية صناعة المركبات الفضائية وقد احنق كل ذلك الكونغرس عليه.

وتجددت المصاعب في فيتنام، وفي خليج الخنازير، وفي قضية الصواريخ السوفياتية، التي كان لموقفه منها صدى مستحب لدى معظم الأميركيين. ولكن حظوته لدى شركائه الأوروبيين كانت اكبر.

## قصة تكساس

كانت المخابرات الحريصة على حياة الرئيس وزوجته غير متشجعة لرحلة الرئيس الى تكساس. ولم تكن ترى موجباً لها. خاصة وان منطقة تكساس تناصب كنيدي العداء الشديد. ففي ٢٦ تشرين الأول اهانت الجماهير في دلاس، سفير


INTERNATIONAL EDITION
The New York Times.
PRESIDENT'S ASSASSIN SHOT TO DEATH IN JAIL CORRIDOR BY A DALLAS CITIZEN; GRIEVING THRONGS VIEW KENNEDY BIER

الصفحة الأولى من جريدة «النيويورك تايمز» ٢٥ تشرين الثاني ١٩٦٣



اوزوالد



كنيدي والعائلة

الولايات المتحدة في الأمم المتحدة ادلاي ستيفنسون. وقد خشيت المخابرات الاسوأ.

وتكساس اكبر ولاية في البلاد. واكثر شراسة وعنفا. وتقاليدها القتالية، منذ الحرب ضد المكسيك، مشهورة. لذلك يعتبر التكساسي نفسه منذ مولده مقاتلا، ولذلك لم يخترع كولت مسدسه عبثا، او للزينة. وتكساس عنصرية، حتى تجاه الولايات الأخرى. ولا ينسى احد حين سألت تكساس واشنطن: ايجب على تكساس ان تعلن الحرب على اليابان، وذلك عام ١٩٤١.

كان الحزب الديموقراطي في تكساس تجمعا من عناصر غير منضبطة عرضية. اما الكثرية الحزبيين الثابتين، فمحافظون شديدو التمسك بيمينيتهم وثمة قلة ليبرالية يتهمها اخصامها باليسارية والتطرف، بذلت كل طاقاتها لانتخاب كنيدي، ولم يكن المحافظون ليثقوا كثيرا بنائب الرئيس ليندن جونسون. رغم انه كان في نظرهم انتهازيا، ولم يكونوا يؤملون كذلك في جون كونالي، رجل الشركات البترولية.

حين اعدت رحلة الرئيس، كانت الخلافات وسط الحزب الديموقراطي شديدة. ولكن كنيدي كان يطمح الى ان يلتف الجميع حول شخصه.

وكان معظم التكساسيين يرون في كنيدي تجسيدا للشر الأعظم. فهو كاثوليكي، ايرلندي. وكانوا يكرهون منه مبادىء التساهل، والعطف على الفقراء، والتعايش السلمي مع الاتحاد السوفياتي. وكانت جريدتهم العريقة «المورنينغ نيوز» التي تمثل آراءهم، تنتقد كنيدي، بل تنال منه، الى حد الشتيمة. فقد جاء في مقال لها قبل الرحلة، يلمح الى الرئيس واعوانه: «يسكن واشنطن جماعة من المفسدين المتمردين الحقيرين». ووصفت كندي بأنه: «مجنون، خمسين مرة ابله»، وخادم الشيوعية العالمية الرديء.

وقد وزعت، صباح ٢١ تشرين الأول، في شوارع دالاس، خمسة آلاف ملصق، فيه صورة كندي وقد كتب تحتها: «مطلوب بسبب الخيانة». في الوقت ذاته كانت طائرة البوينغ ٧٠٧، المجهزة تجهيزا فخما، تحمل الرئيس نحو سان انطونيو، اول محطة في الرحلة.

## الاغتيال

كان اكثر من مائة الف، في سان فرانسيسكو يصفقون للموكب الرئاسي، موجهين اكثر هتافاتهم الحماسية لجاكي. وكان هذا الحشد من السمر، اذ اغلبهم مكسيكيون، يخفي المدينة القذرة المتربة، التي تملؤها لافتات محطات البنزين. القى الرئيس خطابا قصيرا، ثم طار، بعد الظهر الى هيوستن. وقد بدا ان الرحلة موفقة، ولم يخف ذلك اكثر مستشاري الرئيس تكتما وحذرا.

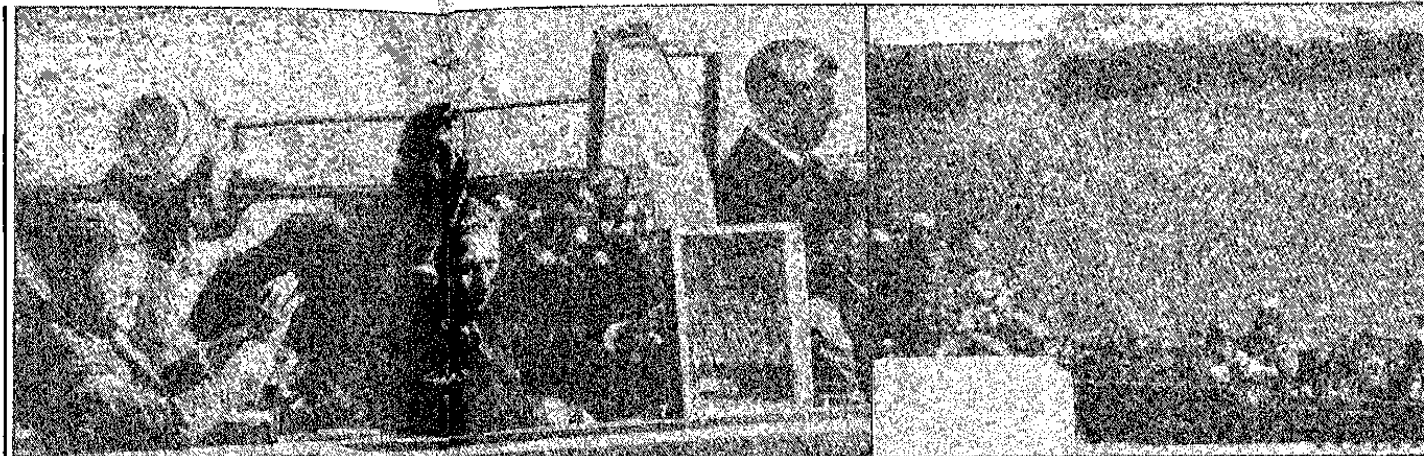
كان الحر شديدا في هيوستن، كحاله في سان انطونيو، ولكن الحفاوة كانت بالغة، رغم ان قلة كانت تحمل لافتات عليها عبارات معادية.

المساء، زار كندي مؤتمرا لاحدى جمعيات الأميركيين الجنوبيين. وقد استقبل استقبالا حارا. ثم عاد الى المطار، حيث نال مع زوجته قسطا من النوم. واستيقظ صباح الجمعة، آخر يوم له على قيد الحياة.

لم ينم رجال المخابرات ذلك الليل إلا قليلا. وجال تسعة منهم، على علب الليل في فورت ورث،



كنيدي مع عائلة كنيدي الايرلندية



كنيدي قبل الاغتيال في سيارة الرئاسة، وإلى جانبه جاكلين ــ لحظة اصابته، جاكي تنحني عليه، وكونالي مصاب.



وهو امر مخالف للأوامر. وبقي آخرون ساهرين في الفندق. وتلقى المفتشون، في الصباح، اولى نسخ المورنينغ نيوز. وكانت صفحة كاملة منها مؤطرة بالسواد، وفي رأسها هذا العنوان: «اهلا وسهلا في دلاس، يا سيد كندي». ثم تلا ذلك مقال ينطوي على اثني عشر بندا، تدور حول «تآمر» كندي مع الشيوعية العالمية.

افاق كندي الساعة السابعة والنصف. وكانت السماء تمطر. ساعده وصيفه على ارتداء ثيابه، وتثبيت الحزام الطبي حول وسطه. وقبل الفطور لقي مجموعة من النقابيين، وتحدث اليهم، ثم عاد الى عائلته. وبعد ان قرأ بعناية المورنينغ نيوز، التفت الى جاكي وقال: «اتعلمين؟ سنبلغ اليوم بلاد المجانين».

رحل فريق الرئيس، في نهاية النهار، الى كارسويل. وبعد ثلاث عشرة دقيقة حطت الطائرة



في لوف فيلد، مطار دالاس. كان الطقس جيدا وحارا. وكان المؤيدون هناك. لم يكونوا كثرا، ولكن الحشد كان شديد الحماسة. على ان الرئيس لاحظ بعض اللافتات العدائية، وبعض الجامعيين يهتفون «يانكي، اذهب الى بيتك». وصرح الزعيم الديموقراطي في سان انطونيو، هنري غونزالس: «آسف انه لم يخترع اقنعة ضد البصاق، وانني نسيت صداري الواقي من الرصاص».

الساعة الحادية عشرة وخمس وخمسون دقيقة، اجتازت سيارة اللينكولن حدود لوف فيلد، تفسح لها الطريق دراجتان ناريتان. وكان في السيارة الرئاسية، الرئيس وزوجته والزوجان كونالي، ورجل امن. وتبع السيارة سيارة مخابرات، وسيارة نائب الرئيس المكشوفة، وبقية سيارات الصحافة والشرطة.

لم يكن الجمهور كبيرا خلال الكيلومترات الأولى. ولكنه كان يتزايد كلما تقدمت السيارات من مركز المدينة. على النوافذ والسطوح تجمع جمهور غفير. كان التصفيق مع ذلك خفيفاً. وبين الحين والحين كان بعض الجمهور يتحدث الى الموكب. وكان من جملته رجال دين، وكشاف، ومكسيكيون. وكان الرئيس وجاكي يحييان باليد.

دخل الموكب مركز دالاس. وكان الازدحام شديدا، الى حد تجاوز معه الأرصفة. وحين خرجت السيارة من هاروود ستريت انعطفت الى مين ستريت. واضطرت الى تخفيف سرعتها الى خمسة عشر كيلومترا في الساعة، بسبب كثافة الحشد، وكانت ساعة الشارع تشير الى الساعة الثانية عشرة واحدى وعشرين دقيقة. وفي ترايد مارت، حيث اقيمت مأدبة يرعاها الرئيس، كان الجميع مشغولين بالاعداد، فبعد دقائق سيصل الرئيس. وفي ديلاي بلازا، كان رجل يدعى برينان، يترقب الموكب الرئاسي. وكان بشكل آلي ينظر الى البناء المقابل. رأى في الطابق العلوي، عند احدى النوافذ، رجلا لا يتحرك. لاحظه الى حين ثم نسيه، حين سمع صخب الموكب. في هذه اللحظة كان ابراهام زابرودا يعد الكاميرا للتصوير. ولم يكن ينتظر ان فيلمه سيصبح تحفة فنية من الدرجة الأولى.

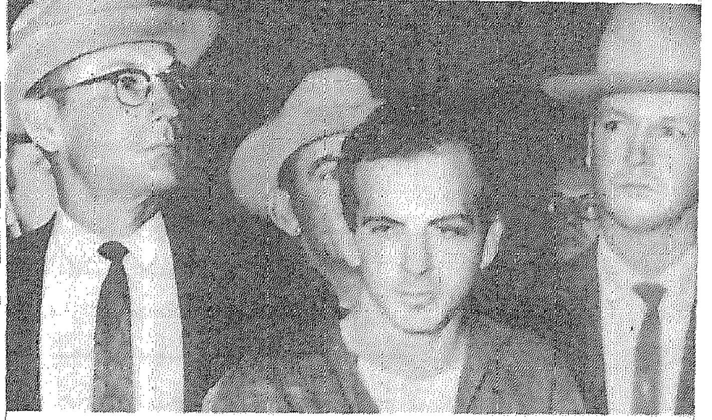
كانت اللينكولن تسير بسرعة ثلاثة عشر كيلومترا في الساعة حين بلغت مين ستريت، ثم انعطفت الى هيوستن ستريت لتنعطف بعد ذلك الى الم ستريت. رفع كندي يده ليحيي احد الأطفال.

الساعة الثانية عشرة وثلاثين دقيقة، سمع صوت انفجار. امتدت يد الرئيس الى رقبته. استمر زابرودا بالتصوير. مرت لحظة فوضى كأنها قرن، لحظة حيرت حتى اقرب الشهود الى المكان. صرخ كندي: «يا الهي لقد اصبت». وصرخ كونالي: «لا، لا، لا، لا، يريدون قتلنا سوية». فقد اصيب كذلك وفيما انحنت جاكي على زوجها، كانت رصاصة اخرى تفجر دماغه. فاذا الدم وبعض الدماغ يلطخ جاكي. لقد مات جون كندي في نظر كل من رآه. وكانت ساعة هرتز المثبتة فوق سطح مستودع الكتب في تكساس سكول تشير الى ١٢,٣٠.

## توقيف المتهم بقتل الرئيس كندي لي هارفي اوزوالد ومقتله

نعرف باقي الأحداث... وفي الوقت الذي كان الجميع مشغولا بالمصابين، في مستشفى باركلاند هوسبيتال، بدأت التحريات لمعرفة القاتل.

زعم البوليس المحلي انه المسؤول عن التحريات، بينما البوليس السري والأف. بي. آي لم تكترث له. ذلك ان السلطات الفدرالية قلما







**اوزوالد في المؤتمر الصحفي ــ اوزوالد يعود الى محبسه ــ روبي يقتله**

تتعاون مع السلطات المحلية. وقد يجهل بعضها البعض الآخر. بل قد يبلغ الأمر في تكساس حد الاشتباك بالأيدي. فالتكساسيون يرفضون ان يتيحوا للاتحاديين الملعونين فخر اكتشاف الجرائم.

الساعة ١٢,٤٥ علم الشرطي تيبيت بمقتل الرئيس، وقد اعطى الأمر بالبحث في منطقته واك كليف. وبعد جولة اعطى تقريره الأولي: «لا شيء يثير الشبهات». فأمر بأن يكون مستعدا لكل طارىء. واعطي اوصاف شاب من البيض، اسمر، نحيل، طويل. وكانت الأوصاف غامضة، غير انه قام بجولة ثانية. الساعة ١٣,١٦ لاحظ شابا يمشي على الرصيف، شديد الاضطراب، تنطبق اوصافه على ما اخبر به. ثم اوقف سيارته، صدفة، قرب الشاب. فجاء الشاب واتكأ على باب السيارة، وجرى حوار بين الاثنين. حاول تيبيت الخروج من السيارة، واذا الشاب يستل مسدسا ويفرغ فيه اربع رصاصات، بثبات عجيب.

كان الشاب لي هارفي اوزوالد. وقد هرب بعد اطلاق الرصاص، الساعة ١٣,٤٢. رآه مدير محل احذية. فتبعه، ورآه يدخل احدى السينمات. فأخبر البوليس. الساعة ١٣,٥٠ اقتحمت السينما قوة من الشرطة واعتقلت اوزوالد.

الساعة ١٤,٣٠ بدأ استجوابه في مركز شرطة المدينة. طلبت المخابرات والأف. بي. آي. حضور الاستجواب. كان اوزوالد يبتسم للصحفيين، ويحييهم، وقبضته اليسرى منقبضة.

بعد قليل اذاعت الشرطة بعض المعلومات: اوزوالد، ٢٤ عاما، عاش في الاتحاد السوفياتي اعواما. وكان معروفا بنشاطه السياسي. وقد صرح ــ حسب الشرطة ــ بأنه «لينيني ــ ماركسي».

استعجلت السلطات المحلية بالتصريح ان اوزوالد القاتل الوحيد، كما استعجلت المحاكمة، كأنما لتزيل كابوس التساؤلات عن الشعب الأميركي. وقد استاء وزير العدل روبرت كندي لهذه العجلة، وصرح بأن التحقيق لم يكن سليما.

المساء نفسه، عقد مؤتمر صحفي، في الطبقة الأولى من السجن. وفيما اعتبر اوزوالد المسؤول عن محاولة القتل الثنائية، اعلن المدعي العام هنري ويد: «ان لديه الاثباتات الكافية لادانة اوزوالد». وان لديه خمسة عشر شاهدا يدينونه، ويؤكدون انه المسؤول الوحيد عن الاغتيال. في نهاية المؤتمر، صعد شخص الى المنبر يريد التحدث الى المدعي العام، الذي خيل اليه انه



كنيدي مع خروتشيف

يعـرف وجـه هـذا الرجـل، الذي قـال له: «ألا تعرفني؟ انا جاك روبي صاحب نادي فيغاس كلاب». فسأله المدعي العام عن قضية اخلاقية اتهم بها من قبل. وفي هذه الأثناء كان روبي يوزع بطاقات دعوة على الشرطة للحضور الى ناديه. كان يبدو مرتاحا تماما. فقد تركه الشرطة يتصرف كما يشاء.

السـاعة ١١،٢١ انقض جـاك روبي عـلى اوزوالد، وقتله، بكل بساطة. وقد صورت القناة ن. ب. ث المشهد.

نقل اوزوالد الى باركلاند هوسبيتال. ولكن الأطباء اعلنوا الساعة ١٣،٠٧ موته.

ثم اختفى جاك روبي دون ان يترك اثرا!؟.

## تقرير وارن نتائج مشكوك فيها

٩ كـانـون الأول ١٩٦٣، وضعت اللجنـة الفدرالية للتحقيق في مقتل كندي، برئاسة وزير العدل وارن، تقريرها بين ايدي الجمهور. وقد اثار التقرير مناقشات وشكوكاً كثيرة.

التقرير في تسعمائة صفحة. بالاضافة الى ٢٦ مؤلف. حول الموضوع. واستجواب ٥٥٢، وعقد ٢٦٥٠٠ جلسة استماع للشهود، وشهود الضد.

وحتى اليوم ما تزال قضية اغتيـال كندي، توحي بالشكوك والتساؤلات. فما هي الحقيقة وراء كل ذلك؟. ●

# أبوظبي وعلاقاتها الحضارية في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد

قسم التوثيق والأبحاث

ألقت التنقيبات التي أجريت في هيلي وأم النار ضوءا جديدا على مدى انتشار الفخار الاحمر والرمادي المحزز مع اظهار العلاقة والتشابه بين هذه الفخاريات وتلك التي سبق وان عثر عليها في مدافن شاهي تامب في مكران وكلي في بلوجستان وبامبور في جنوب شرق ايران. وتمتاز الزخارف التي زينت بها هذه الفخاريات بأنها مصبوغة بلون اسود على ارضية حمراء فاتحة اللون وبعض من اللون القهوائي والارجواني والتبني. وتتألف أغلب هذه الزخارف من خطوط متعرجة أو متوازية أو حزوز متقاطعة أو مثلثات. ومما يجدر ذكره فيما يخص فخاريات هيلي عدم العثور على أي رسم للثور المحدب بينما عثر في أم النار وفي كلي في بلوجستان على جرتين فخاريتين يظهر عليهما الثور ذو السنام وقد اعتيد على رسم ثور أم النار بلون أسود على ارضية حمراء. ومن الميزات الاخرى لفخاريات هيلي عدم وجود اي نوع من الطلاء أو صور للنباتات. اذ ان مثل هذه الفخاريات سائدة في مدافن العصر الحجري المعدني في منطقة مكران في بلوجستان حيث تتشابه من حيث اللون وطريقة الصنع والزخرفة الهندسية.

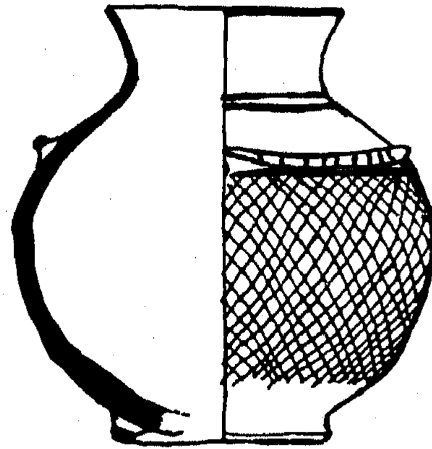
وفي الطبقة الرابعة من موقع بامبور في جنوب شرق ايران عثر على مواد ذات علاقة بحضارة كلي. ويبدو من الواضح وجود تشابه عام بين اواني أم النار وبين اشكال ونقوش في بامبور، وكذلك الحالة بالنسبة الى موقع مندكاك في جنوب افغانستان.

ان اقرب الاشكال المتشابهة بين هذه الحضارات هي في الفخاريات الرمادية اللون (Grey ware) الملونة بالاسود وهي تمثل اواني صغيرة ذات اشكال جؤجؤية (Carinated) عليها زخارف هندسية أو افاريز من الغزلان أو الماعز لونت بلون قهوائي أو أسود.

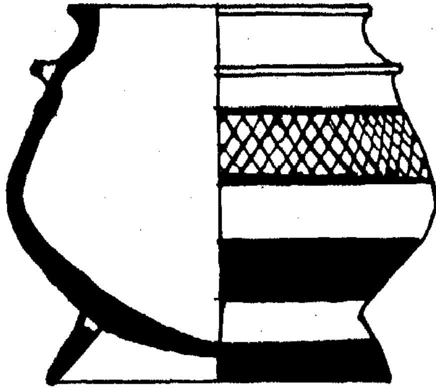
وفي التنقيبات التي أجريت مؤخرا في المدفن (ب) في هيلي عثر على كميات كبيرة من كسر الفخار الرمادي مزخرفة بلون اسود بأشكال هندسية كالخطوط المتوازية والمائلة والمثلثات وهي تتشابه مع مثيلاتها في مدافن شاهي تمب وبامبور. ومن الاشكال الاخرى التي تشاهد على هذا الفخار رسوم حيوانات محورة ذات قرون بصفوف متراصة متتالية وقد تمثل ذلك في جرة كبيرة واحدة وثلاث اقداح صغيرة. وقد وجدت كذلك صور للماعز يستدل منها على التحول الى الرسم الزخرفي للحيوانات بشكل دقيق أقرب الى الطبيعة. لقد عثر على فخاريات تحمل مثل هذه الزخارف في موقع شاهي تمب وكلي وتشمل زخارف هندسية وافاريز وأحزمة ذات طابع متميز حيث يتكرر منظر حيوانين أحدبين مع أرضية وخلفية من الشجيرات والاعشاب مع صفوف الماعز المحورة.

اما فيما يخص موقع ماهي في الباكستان فتتشابه فخارياته مع فخاريات هيلي وأم النار ولمثل هذه الفخاريات أرضية حمراء خفيفة تمثل أوعية عالية وواسعة وجرار كروية مع اقداح وجرار ذات قواعد مسطحة أما زخارفها فتسود عليها الخطوط المتوازية التي تشكل أحزمة

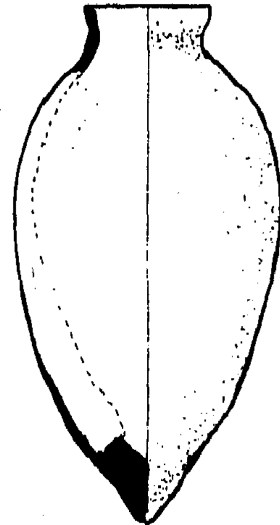
لحضارة هيلي وأم النار في أبوظبي علاقة قوية بالحضارات التي سادت في المنطقة في حوالي منتصف الالف الثالث قبل الميلاد، وكما ذكرنا لم تكن هذه الحضارة بمعزل عن حضارة وادي الرافدين أو جنوب ايران أو حضارة وادي السند. لقد اثبتت الحفريات التي جرت في هذين الموقعين (هيلي وأم النار) وجود مثل هذه العلاقة من خلال التشابه المعروف في الاواني الفخارية أو الحجرية بجميع أنواعهما. وسنقدم فيما يلي استعراضا لهذه العلاقات التي توصل اليها من خلال نتائج التنقيبات في جميع المواقع التي سترد في هذا البحث.



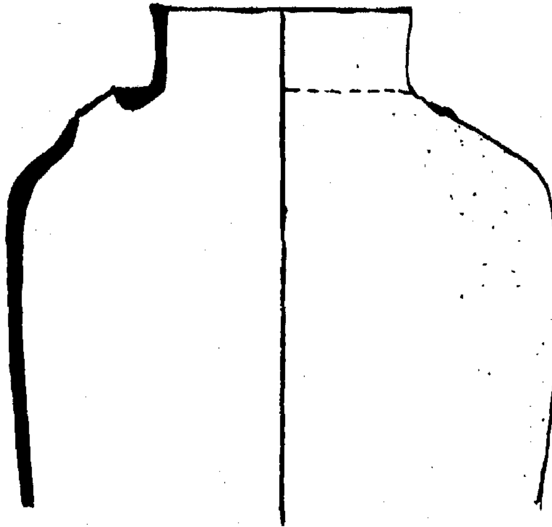
شكل ( ا ) رسم جرة فخارية من هيلي.



شكل (ب) رسم جرة فخارية من تل اجرب.

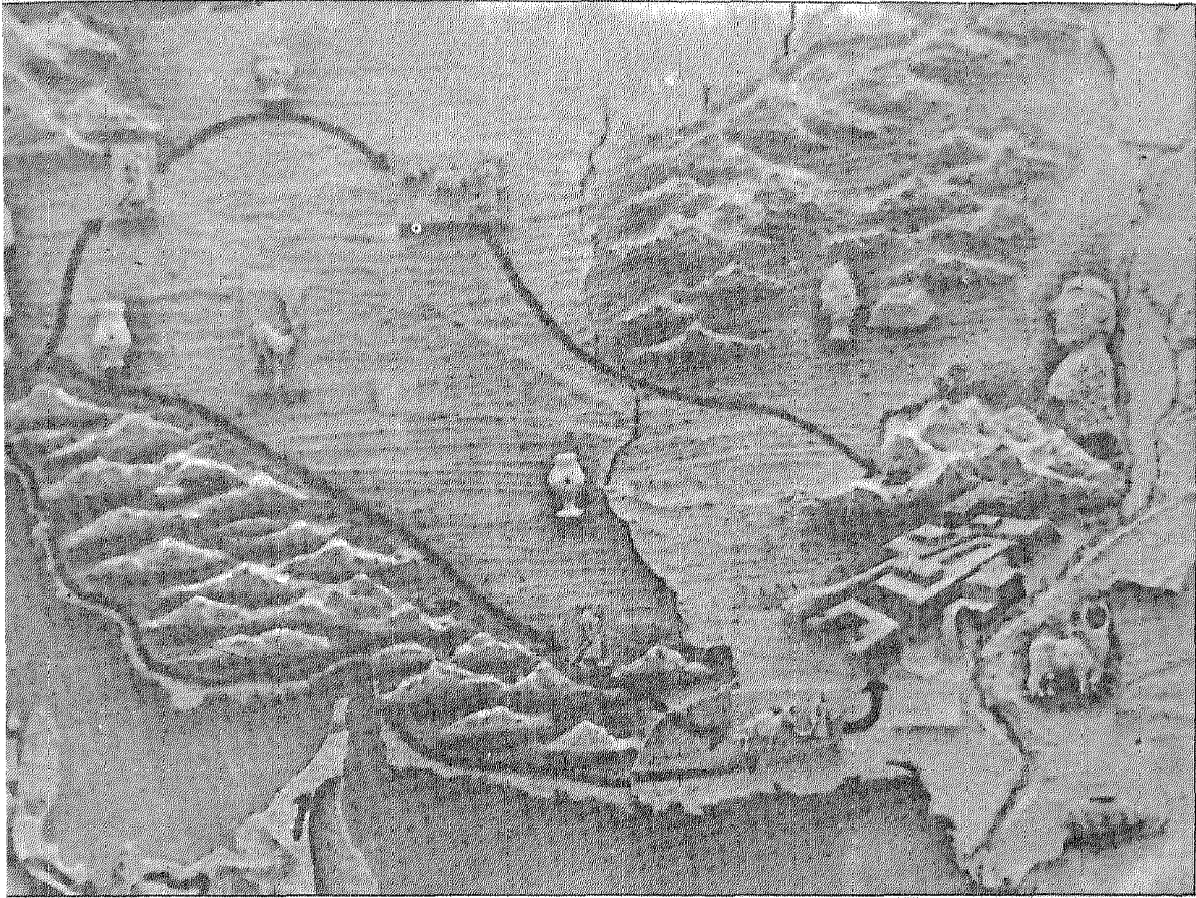


شكل (ج) رسم جرة فخارية من جبل حفيت.



شكل ( د ) رسم جرة فخارية ذات مصب من ام النار.

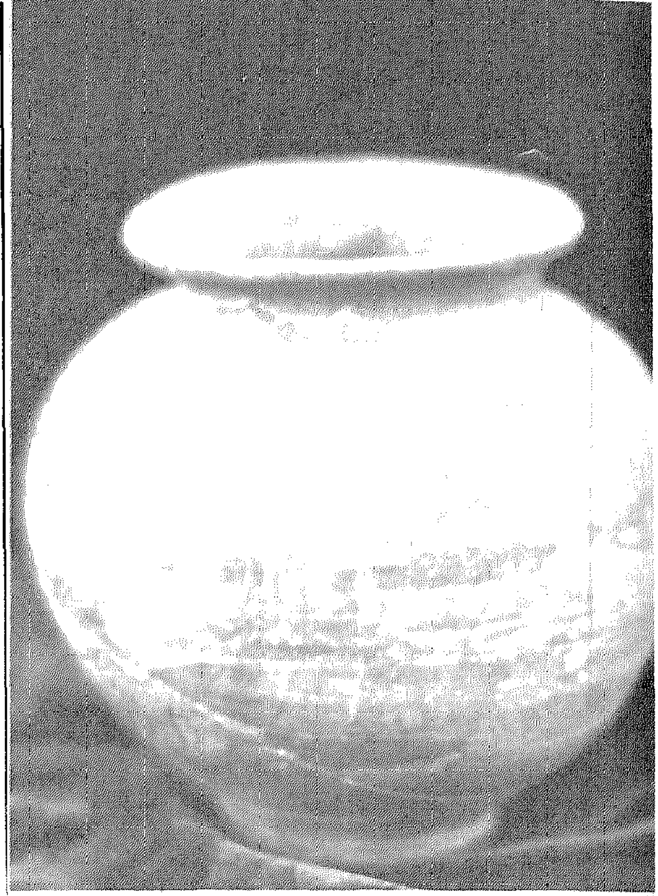
اخذت عن مجلة (Kuml) ١٩٧٠



خارطة عامة تبين طرق انتقال الحضارة في الالف الثالث قبل الميلاد.

وخطوطاً متموجة تدور حول الاناء نفسه. وكذلك الحال بالنسبة الى موقع شاهي تمب، فطريقة صنع هذه الاواني وزخارفها وأشكالها شبيهة بما وجد في هيلي وأم النار ويسود بينهما طابع عام هو الفخار الكروي الشكل والاقداح الحمراء الصغيرة ذات الجدران الرقيقة. ومثل هذا النوع من الفخار لا يستعمل ضمن الادوات البيتية بل يستعمل في المدافن والطقوس الدينية فقط لان قابليته للكسر كبيرة.

ولو أردنا ان نبحث في فخاريات هيلي وأم النار لوجدناها واحدة تقريبا مع اختلافات بسيطة جدا فكلاهما معمولان بواسطة العجلة ويغلب عليهما اللون الاحمر، وقد استعمل الصبغ الاسود في تزيينهما. وبالاضافة الى الفخاريات الرمادية الملونة بالاسود والتي سبق ذكرها فهناك الفخاريات الرمادية المحروقة بشدة والتي تحمل زخارف محززة ومن المتحمل ان تكون تقليدا لاواني الحجر بصفات معينة. وتجدر بنا الاشارة الى ان مثل هذه الفخاريات عثر عليها في اماكن متعددة اعتبارا من وادي السند الى وادي الرافدين وحتى مدينة ماري في أقصى الغرب، ويغلب على هذه الفخاريات الشكل الاسطواني. اما الزخارف فأغلبها هندسية قوامها مثلثات مخططة أو خطوط متموجة ومتقاطعة وكذلك زخارف معمارية تمثل مداخل وشبابيك جانبية. لقد أرخت مثل هذه الفخاريات والتي عثر عليها في وادي الرافدين بنهاية فجر السلالات الثاني في حدود ٢٦٠٠ قبل الميلاد وكذلك فجر السلالات الثالث حوالي ٢٦٠٠ ـــ ٢٣٧٠ قبل الميلاد. وقد عثر على قسم قليل من هذه الفخاريات في أم النار. وكذلك بالنسبة الى هيلي فالفخاريات المكتشفة فيها لا تمثل الا نسبة قليلة من عموم الفخاريات وهي لا تزال غير معروفة الاصل تماما ولكنها معروفة في وادي الرافدين وجنوب شرقي ايران وبلوجستان. وفي موقع بامبور عثر على كميات من الستيتايت جنبا الى جنب مع الفخار



جرة من الفخار الاحمر مزينة بزخارف هندسية اكتشفت في أحد مدافن ام النار (الألف الثالث قبل الميلاد)

المحزز، بينما عثر في الطبقة الرابعة من موقع تبه يحي في جنوب ايران على كميات كبيرة من الستيتايت دون ان يعثر على فخار رمادي محزز. اما هيلي وأم النار فقد عثر في مدافنهما على كسر قليلة من الستيتايت اضافة الى الفخاريات الرمادية المحززة. ان أشكال اواني الستيتايت من هذين الموقعين اما أن تكون اواني صغيرة مزينة بدوائر منقطة أو كسر من اواني مقسمة (أنظر الشكل أ) تحمل نفس النقوش الهندسية.

ومن مكتشفات هيلي غير الاعتيادية اناء من حجر الستيتايت الاسود الصقيل ولهذا الاناء نظير عثر في المقبرة الملكية في أور. وفي أربعة قبور من مقابر المقبرة الملكية عثر على أربعة أشكال مشابهة لاناء هيلي لكنها صنعت من حجر مختلف، وقد وجدت ثلاثة من هذه الاواني جنبا الى جنب مع فخاريات معروفة في أم النار. وفي مدفن هيلي الكبير عثر على جرة فخارية مشابهة لجرة اخرى وجدت في تل أجرب في منطقة ديالي قرب بغداد (الشكل ب). ولهذه الجرة شريط مضاف يدور على أعلى البدن عليه أربعة ثقوب للتعليق وكذلك القاعدة اذ تلاحظ عليها أربعة ثقوب أخرى.

لقد أرخت جرة تل أجرب بعصر فجر السلالات الاول ٢٩٠٠ ــ ٢٧٠٠ قبل الميلاد. ولم تكن جرار التعليق معروفة في أم النار لكن كسرا من هذه الجرار وجدت في المستوطن المجاور.

ولا بد في هذا المجال من التطرق الى جرتين مفيدتين للمقارنة أحداهما ذات مصب كشفت في أحد مدافن أم النار (الشكل د). ورغم ان القاعدة والجزء السفلي من هذه الجرة مفقود الا ان الرقبة المستدقة والكتف الجؤجؤي الشكل وكذلك المصب الملاصق للرقبة تذكرنا بجرار اخرى مشابهة عثر عليها في خفاجي وتل أجرب في وادي الرافدين وقد أرخ هذا النوع من الجرار بفجر السلالات الاول ولكنه استمر في فجر السلالات الثاني والثالث. ومن الجرار الاخرى التي تشير الى وجود علاقة حضارية بين منطقة أبو ظبي ووادي الرافدين هي الجرة المبينة في الشكل (ج) وهي ذات بدن كمثري الشكل وقاعدة مدببة ورقبة طويلة مائلة للخارج لونها يميل بين الاحمر والقهوائي. اما طينتها فممزوجة بدقائق الحصى الناعم، ومثل هذه الجرار معروفة في المقبرة الملكية في أور، حيث أرخت أغلب هذه المدافن والبالغ عددها ٣٦ مدفنا لفترة أقدم وهي في كل الاحوال ليست أقدم من فخر السلالات الثاني ربما تكون من عصر فجر السلالات الثالث (٢٦٠٠ ــ ٢٥٠٠ق. م) وفي أبو ظبي عرف هذا النوع من الفخاريات في أم النار فقط حيث عثر على عدة قطع فخارية من هذا النوع في احد المدافن بينما عثر على حافات من هذا النوع في المستوطن المجاور.

اما بالنسبة الى البحرين فقد كانت في تلك الحقبةحضارية تمثل مركزا مرموقا في عالم التجارة ومما يجدر ذكره لم يعثر في أبو ظبي على أية فخاريات من عصر باربار المعروف في البحرين، بينما العكس فقد وجدت فخاريات من هيلي وأم النار في البحرين. ●





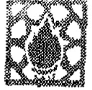

صلاح الدين الأيوبي.

# العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقية (١١٧١ - ١٢٥٠م)

محمّد الفاكياني

تعتبر العلاقات التجارية، بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقية، من الموضوعات ذات الأهمية في تاريخ العصور الوسطى، وأن هذه العلاقات قامت في فترة كان فيه الصراع العربي ــ الفرنجي ــ الصليبي ــ من ناحية، والنزاع بين القوى البحرية والتجارة الأوروبية، للسيطرة على التجارة الشرقية من ناحية ثانية. وفي غمرة هذا الصراع السياسي والعسكري وفي المحادثات الاقتصادية والثقافية، الذي نتج منها عن الاحتكاك بين الشرق والغرب في عصر الحروب الصليبية.

قامت العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية، وبين الجمهورية البندقية، التي تصدت لها بنجاح كبير للخطر الصليبي، وبين الجمهورية البندقية التي لعبت دورا كبيرا وخطيرا في الحركة الصليبية، سواء كان في نقل الصليبيين إلى الشرق على سفنها واساطيلها، او في مساعدتهم على احتلال بعض المدن والمواقع في الساحل الشامي، (في تثبيت الوجود الصليبي وحمايته عن طريق الاتصال البحري بين الامارات الصليبية والغرب الأوروبي من جهة، ونقل المؤن والأسلحة والقوات إلى هذه الامارات في المدن الصليبية، من جهة أخرى).



من هنا تأتي أهمية هذه العلاقات، التي تضاربت فيها المصالح والأهداف مرة، والتقت وتقاربت مرات، وتآلفت واندمجت وتنافرت وتباعدت في بعض الأحيان، وفقا لمقتضيات الظروف والأحوال، وتبعا لتغير ميزان القوى في الصراع العربي ـ الصليبي، في الشرق الأدنى.

## الحالة الاقتصادية لمصر والشام في العصور الوسطى

لعبت مصر والشام في العصور الوسطى، دورا هاما لتنشيط الحركة التجارية ولجذب التجار الفرنجة وتجار البنادقة للاستفادة من هذه الفئة الاقتصادية ولتنشيط وتشجيع الحركة التجارية داخليا وخارجيا فموقع مصر الاستراتيجي التي جعلها أن تكون حلقة وصل بين الشرق والغرب، وسوقا عالميا للتبادل التجاري بين أفريقية وآسية وأوروبة. هذا كان قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي.

وقد احتل البحر الأحمر أهم الطرق التجارية التي تدفقت من خلاله تجارة الشرق الأقصى إلى موانىء الغرب الأوروبي. وفضلا عن ذلك فضل التجار الفرنجة التوجه إلى أسواق مصر للحصول على التوابل الهندية والحرير الصيني، عوضا عن الارتحال إلى شواطىء الخليج العربي لبعد المسافات الطويلة وغير الآمنة.

ولم تقتصر أهمية مصر على موقعها في حركة التجارة الدولية، وإنما امتدت هذه الأهمية لتشمل الثروة الاقتصادية التي امتلكتها مصر، وبخاصة مادة حجر الشب. وقد تطلبت الصناعات النسيجية في الغرب الأوروبي، في العصور الوسطى، استخدام حجر الشب بشكل واسع النطاق: وذكر ابن مماتي (أن الشب حجر معروف بمصر يستعمل إلى أشياء كثيرة أهمها لصبغ الألوان وخاصة اللون الأحمر، ولشدة فائدته عند الأفرنج والبنادقة هو حاجة أساسية إليه لا بد عنه، هذا مما جعل البنادقة يميلون إلى الأسواق المصرية). للتفتيش عن السلع والحاجيات مثل السكر والنطرون والبلسم وغيرها من السلع التي كانت موضع اهتمام التجار البنادقة، وغيرهم من التجار الفرنجة، في العصور الوسطى.

أما بالنسبة إلى بلاد الشام فإنها لم تكن أقل من أهميتها التجارية عن مصر في العصور الوسطى: فقد لعب التجار الشاميين دوراً عظيماً مما لفت أنظار العالم نحو الشام لجلب بضائع الشرق الأقصى إلى المدن الشامية عن طريق الخليج العربي وآسية الصغرى ومصر: وقد شكلت هذه المدن بدورها محطات تجارية بالغة الأهمية ما بين الشرق والغرب. وفضلا عن ذلك فإن ثروات بلاد الشام، وبخاصة القطن والسكر والزجاج وغيرها من السلع، التي كانت موضع الاهتمام بالنسبة لتجار الفرنجة بصفة عامة وتجار البندقية بصفة خاصة.

وعلى الرغم من أنه لا تعرف البداية الحقيقية للعلاقات التجارية بين جمهورية البندقية ومصر والشام، إلا أن هذه العلاقات تعود إلى القرن التاسع الميلادي، حيث حمل البنادقة، خلال ذلك القرن، إلى موانىء هذين البلدين المنتجات المتوفرة في المناطق المحيطة بمدينة البندقية مثل الأخشاب والحديد وغيرها. وفي القرن العاشر الميلادي قد توغل التجار البندقيون في الشرق الأوسط مما جعل علاقات ودية بين البنادقة والفاطميين (٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ = ٩٦٩ ـ ١١٧١م). مما شجع التجار الفاطميين لاستيراد مواد البناء لمصر والشام مثل الحديد والأخشاب للبناء وبناء السفن. وقد استشاطت الدولة البيزنطية غضبا من الجمهورية البندقية، وراحت توعز إلى الحكومة البندقية بأن لا تسمح بتصدير الأخشاب إلى أسواق مصر والشام، وبالإضافة إلى ذلك فقد هدد الامبراطور البيزنطي حنا تزيمسكيس (٩٦٩ ـ ٩٧٦م) بالانتقام من البندقية إذا لم تمتنع عن مد الفاطميين بالخشب الذي يصلح لعمارة السفن، وذلك كله حتى لا يشتد ساعد الأسطول الفاطمي الذي كان يقف للبحرية البيزنطية بالمرصاد.

فقد اختارت الجمهورية البندقية حفظا على مصالحها الاقتصادية في مصر والشام، وإرضاء أباطرة الدولة البيزنطية، أجازت لتجارها نقل خشب اللبخ والسنديان، على ألا يتجاوز طول اللوح الواحد خمسة أقدام: وأرسل دوج



**الرمز والمضمون: في حملات الدعاية الصليبية، ظهر الأسد، وهو شعار يرمز به الاوروبيون لانفسهم ـ يلتهم الجمل على ثوب التتويج الذي اختاره روجر الثاني.**

البندقية بطرس أورسيلو سفيرا إلى مصر من أجل معاهدات تجارية بين مصر والجمهورية البندقية عام (١٩٩ ـ ٢٩٩م)، وبواسطة هذا السفير الدبلوماسي تمكنت الجمهورية البندقية من الحصول على امتيازات تجارية واسعة النطاق في الموانىء المصرية.

## سياسة صلاح الدين الأيوبي التجارية

كان السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧ ـ ٥٨٩هـ = ١١٧١ ـ ١١٩٣م) قد وضع قواعد أساسية لسياسته التجارية، استهدفت منها إقصاء التجار الأوروبيين جميعا من التجارة الداخلية في دولته: والتزم سلاطين الأيوبيين والمماليك بهذه السياسة، من بعده، عدة قرون. وجاء في المصادر العربية المعاصرة أن السلطان صلاح الدين الأيوبي كان يدرك تماما بأن محاولات الفرنجة الصليبيين، تحت قيادة أرناط (رينوددي شاتيون) وأن أرناط فارسي صليبي الأصل كان في خدمة الملك الفرنسي لويس السابع عندما وصل إلى الشرق حاكما لحصن الكرك، وأخذ بمهاجمة قوافل الحجاج المسلمين وهم في طريقهم إلى الديار الحجازية. وفي عام ١١٨٢ أقدم أرناط على مشروع خطير استهدف به تحقيق سيادة الفرنجة الصليبيين على البحر الأحمر وغزو مكة والمدينة. ولم يقف صلاح الدين الأيوبي مكتوف الأيدي حيال هذا التهديد للحرمين الشريفين مما جعله يجهز الأسطول البحري في البحر الأحمر وتمكن الأسطول الأيوبي من تحطيم السفن الصليبية وإفشال مشروع أرناط للنفاذ إلى منطقة البحر الأحمر، عام ١١٨٢ ـ ١١٨٣م) وبما أن الصليبيين لا يرغبون في الاستيلاء على الأراضي المقدسة في بلاد الشام فحسب وإنما يطمعون ايضا بتوسيع نفوذهم إلى الحجاز والاستيلاء على البحر الأحمر ومحطاته التجارية.

وقد أرسل صلاح الدين رسولا من طرفه يحمل رسالة إلى الخليفة العباسي في بغداد، يشرح بها أهداف الفرنجة من محاولتهم غزو منطقة البحر الأحمر، قائلا: (كان للفرنج مقصدان: أحدهما قلعة أيلة، التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله، وانقسم الافرنج إلى فريقين، وسلكوا طريقين: فأما الفريق الذي قصد قلعة أيلة فإنه أراد أن يمنع أهلها من الماء الذي به قوام الحياة، ويقاتلهم ويستعمرهم بنار العطش. أما الفريق الثاني القاصد سواحل الحجاز واليمن، فأراد أن يمنع طريق الحاج من حجه، ويحول بينه وبين

مقصده. وذهبت فئة من تجار اليمن وأكارم عدن الذين هم مجموعة من التجار المسلمين الذين قاموا بنقل سلع وبضائع الشرق الأقصى من اليمن إلى مصر، وخاصة التوابل والفلفل والبهار. وقد استمر نشاط تجار الكارم ما بين القرن الثاني عشر وأواخر القرن الخامس عشر وهم يعملون بهذه التجارة (حتى سموا بتجار التوابل والفلفل والبهار).

وفي عهد صلاح الدين لعبت جمهورية البندقية دورا مزدوجا في علاقاتها مع الأيوبيين والصليبيين، فمن جهة كانت تمد يد المساعدة للصليبيين لمواجهة السلطان صلاح الدين، وذلك حرصا على امتيازاتها التجارية في المدن والأمارات الصليبية: ومن جهة أخرى كانت تقوم بنقل السلع والبضائع، وخاصة منها الأسلحة وأدوات القتال، إلى الأيوبيين في مصر والشام. ولقد أشار السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى هذه الحقيقة في الرسالة التي بعثها إلى الخليفة العباسي، الناصر لدين الله، في بغداد، عام ٥٧٨هـ = ١١٨٢م، والتي جاء فيها: (ومن هؤلاء البنادقة والبياشنة والجنوية) كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم، وتارة يجهزون سفارا يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة. وما منهم إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده، وربما هذا يفسر السياسة السمحة، التي عامل بها السلطان صلاح الدين الأيوبي الجالية البندقية في عكا عندما اقتحمها عام ٥٨٣هـ = ١١٨٧م.

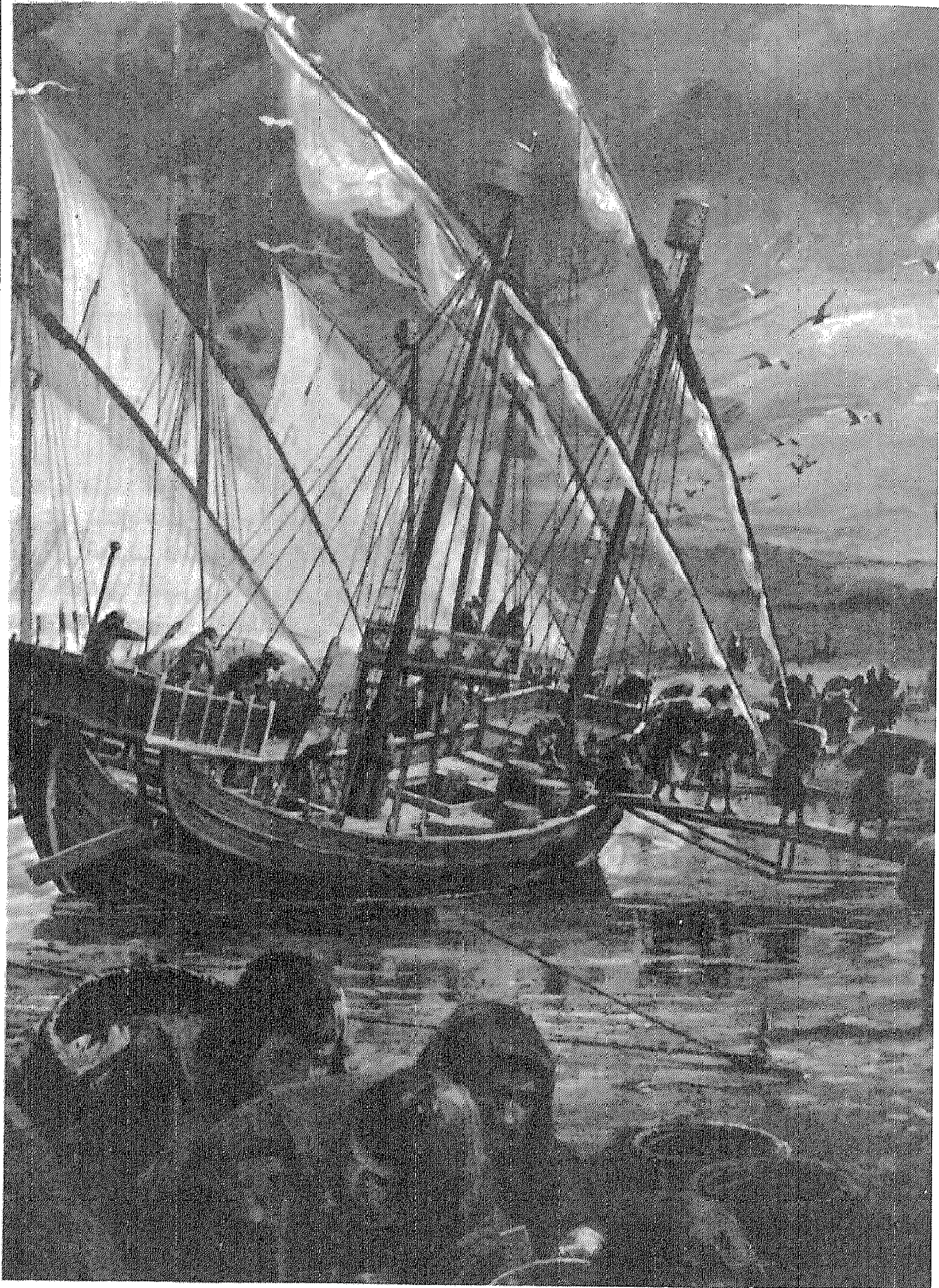
وفي أعقاب فتوحات صلاح الدين الأيوبي وفشل الحملة الصليبية الثالثة في استرداد بيت المقدس ضعفت العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين، وذلك نتيجة ضغط البابوية، والرأي العام الصليبي والأوروبي، على الجمهورية البندقية لقطع علاقاتها التجارية مع العرب والمسلمين في مصر والشام، وقد حرصت البابوية أشد الحرص على الجمهورية البندقية وبخاصة منذ قيام الحركة الصليبية، الذي دفع البابا إلى أخذ هذا القرار عندما هزمت الصليبيين في حطين، وعندما وقع أرناط أسيرا في قبضة السلطان صلاح الدين الأيوبي قتله وفاء بوعده الذي قطعه على نفسه. وعندما فتح صلاح الدين بيت المقدس عام ١١٨٧م وكان لهذا الانتصار أيضا رد عنيف في المغرب الأوروبي. وسرعان ما قامت الحملة الصليبية مرة أخرى اشترك فيها فردريك بربروسا امبرطور ألمانيا وفيليب اغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا. وقد فشلت هذه الحملة في تحقيق هدفها وهو إعادة احتلال بيت المقدس واسترداد ما حققه صلاح الدين الأيوبي.

والواقع أن المراسيم البابوية لم تفلح في قطع العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين، وفي أعقاب الفتوحات التي حققها السلطان صلاح الدين الأيوبي: فكثرة الأوامر والمراسيم البابوية المتعلقة بتحريم المتاجرة مع العرب المسلمين، التي صدرت حينذاك، تدل دلالة قاطعة على أن العلاقات التجارية بين الجمهورية البندقية والأيوبيين لم تتوقف بتاتا، وهذا مما دعا البابوية إلى تكرار مثل ذلك. وفضلاً عن هذا كله فقد أثبتت هايد أنه خلال شتاء عام (١١٨٧ ــ ١١٨٨م) أي في العام الثاني على فتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس كان في ميناء الاسكندرية حوالي سبعة وثلاثين مركبا تجاريا من جنوة وبيزا والبندقية، ومن الواضح أن أكثر التجار الفرنجة كانوا يأتون إلى مصر في فصل الربيع والخريف. لقضاء العطلة والاستجمام والراحة.

وإذا كانت البندقية قد استجابت، في بعض الأحيان، لنداءات البابوية ومراسيمها بشأن تحريم المتاجرة مع العرب المسلمين، فإنها لم تفعل ذلك خوفا من الحرمان الكنيسي أو الرأي العام الصليبي والأوروبي، وإنما رغبة منها في توسيع امتيازاتها التجارية في المدن والأمارات الصليبية: وإن هذه الامتيازات التي كانت تمنح للبنادقة بوجه خاص لتقديمها المساعدات للصليبيين ووقوفها إلى جانبهم في القتال ضد الأيوبيين.

## المعاهدات التجارية

احتفظت البندقية بعلاقات ودية مع السلطان الملك العادل الأيوبي (١١٩٩ ــ ١٢١٨م) خاصة وأن الملك العادل كان يرغب في تعزيز العلاقات



جبهة على الماء: لعبت أساطيل الصليبيين دوراً أساسياً في معارك عكا وبيت المقدس، ووقع عليها عبء توفير أدوات الحصار وايصال الامدادات وتأمين زحف الجيش على طول سواحل الشام، لكن الغريب أن الأسطول المصري، الذي كان قادراً على تحطيمها بيسر، لم يقرر أن يتصدى لها بأي قدر من الجدية.

التجارية بين سلطنته وجمهورية البندقية، فإحدى الوثائق التي تعود إلى عام ١٢٠٠م، تؤكد استمرار نقل البنادقة، على سفنهم التجارية للأسلحة والأخشاب إلى الموانىء المصرية، كما أن البندقية أبرمت مع السلطان الملك العادل الأيوبي أقدم معاهدة تجارية، مع مصر، وذلك عام ١٢٠٨م، على يد السفيرين مارنبوا داندولو، وبطرس ميخائيل. واشتملت هذه المعاهدة على منح البنادقة امتيازات وتسهيلات تجارية في الموانىء المصرية، وقد تعهد السلطان بحماية البنادقة في المناطق التابعة له، ومعاملتهم كأبناء أمة صديقة.

بهذه المعاهدة لعبت البندقية دورا كبيرا في تحويل الحملة الصليبية عام ١٢٠٢ ـــ ١٢٠٤م عن هدفها الأساسي، وذهب بعض الباحثين المحدثين. أمثال (ماس لاتري، وكارل هويف) إلى القول أن البندقية قامت بتحويل الحملة عن مصر نتيجة الاتفاق السري. الذي تم توقيعه بين الحكومة البندقية والسلطان الملك العادل الأيوبي، وذلك في تاريخ ١٣ مايو عام ١٢٠٢م، اشتملت هذه المعاهدة على منح البنادقة امتيازات تجارية سخية في الاسكندرية، مقابل أن يقوم البنادقة بتحويل الحملة الصليبية عن مصر.

وقد استغلت الجمهورية البندقية تحويل الحملة الصليبية عن مصر لمصالحها التجارية، وقامت بإرسال سفير من قبلها إلى حلب، يدعى مار ينياني، حيث أبرم هذا السفير معاهدة تجارية مع صاحب حلب آنذاك، وهو الأمير غياث الدين غازي بن صلاح الدين. وحصلت البندقية بموجب هذه المعاهدة على فندق وحمام وكنيسة، كما حددت فيها الرسوم الجمركية التي يتوجب على تجار البنادقة دفعها في حلب بواقع ١٢ ٪ من قيمة السلع والبضائع، وتعهد أيضا الأمير الأيوبي بتقديم كافة التسهيلات والمساعدات للتجار البنادقة في مدينة حلب. وكان في عام ١٢٠٧ ـــ ١٢٠٨م.

ويلاحظ أن نشاط البنادقة مع الأيوبين في مصر والشام كان نشاط بالغ الأهمية مما وضع البنادقة في الامبراطورية البيزنطية بموقف حرج بصفة عامة وفي القسطنطينية بصفة خاصة، هذا وقد بدأت البندقية تبحث عن البديل والتعويض في ميدان آخر، ولهذا قامت البندقية باتصالاتها الآنفة الذكر مع حلب والقاهرة.

وكان في عام ١٢١٧م قد جاء وفد من الجمهورية البندقية يحمل رسالة إلى الملك العادل الأيوبي وتقدم إليه الوفد البندقي بمطاليب مغرية وأعرب الملك العادل عن رغبته في تفضيل البنادقة على بقية الأمم الفرنجة الأخرى.

وبدأ التجار البنادقة يتدفقون إلى الموانىء المصرية، على أثر توقيع معاهدة عام ١٣٠٨م بين البنادقة والملك العادل الأيوبي، حتى أن الأيوبيين أخذوا يشعرون بالقلق من جراء هذا التزايد المستمر من قبل تجار البنادقة على الاسكندرية. وقد بلغ عددهم ما يقارب الثلاثة آلاف رجل، وهنا استغل التجار البنادقة هذه المعاهدة وهذا التدفق الزائد وراحوا يعبثون بالأمن حينما علموا أن المعاهدة هي لصالحهم وصالح تجارتهم وقد ثاروا بأهل الاسكندرية وافتعلوا القلاقل والفتن.

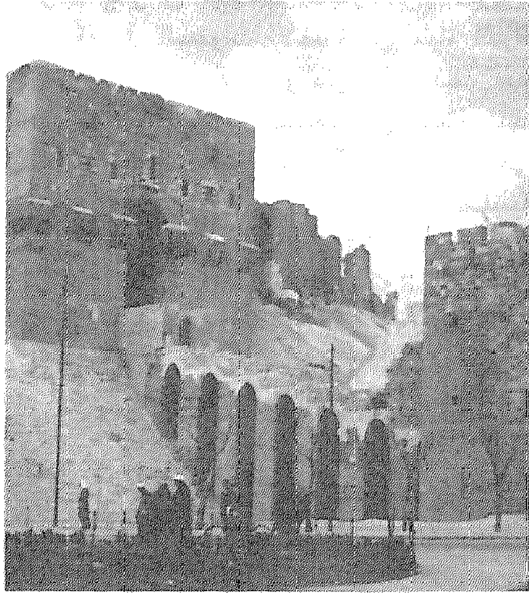
وقد توجه في الحال الملك العادل إلى الاسكندرية، واجتمع مع وفد من التجار الفرنج والبنادقة وبعد المحادثات المتبادلة دون الوصول إلى أمر يتناسب والدولة، أمر الملك العادل بإلقاء القبض على كافة التجار الفرنج والبنادقة ومصادرة أموالهم المنقولة وبضائعهم وعاد الملك إلى القاهرة. فلحق بهؤلاء التجار الأضرار الفادحة من جراء عملية الاعتقال والمصادرة التي قام بها الملك العادل.

وهنا تدخلت الحكومة البندقية في الأمر وحاولت إيجاد تسوية عادلة مع الملك العادل والتجار، وقد أفرج عن التجار وأعاد لهم بضائعهم وأموالهم. فاستغلت الجمهورية البندقية هذا الأمر فأرسلت وفداً إلى الملك الكامل، ابن السلطان الملك العادل ونائبه في مصر وقد استقبل هذا الوفد استقبالا رسميا وكان برتبة سفير. ولو أن السفارة لا تشير إلى الكيفية التي تمت فيها معالجة حادثة الاسكندرية في عام ١٢١٥م ولا إلى الإفراج عن التجار البنادقة وأموالهم، إلا أنها تدل على عودة العلاقات الودية بين البنادقة والأيوبيين، وبالتالي استئناف البنادقة نشاطهم التجاري في مصر.

ولكن سرعان ما ساءت العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين مرة ثانية، وذلك نتيجة مشاركة البنادقة في الحملة الصليبية الخامسة التي قادها (جان دي برين على مصر) سنة ٦١٥ ــ ٦١٨هـ = ١٢١٨ ــ ١٢٢١م. فعندما احتلت هذه الحملة مدينة دمياط رحب البنادقة، الذين كانوا يعيشون في هذه المدينة، بقدوم الصليبيين واستيلائهم على دمياط وذلك لأن البنادقة فرحوا الى سقوط دمياط في أيدي الصليبيين واعتبروا أن هذا انتصار تجاري عظيم أكثر من كونه انتصاراً عسكرياً. يضاف إلى ذلك أن البنادقة كانوا من المتحمسين والمشددين لرفض مشروع الصلح الذي تقدم به الملك الكامل للصليبيين مقابل الانسحاب من دمياط، بحيث أن التجار البنادقة كانوا يرغبون في جعل دمياط مركزا تجاريا لهم. وعندما أخذ العرب المسلمون يقاتلون لاسترداد دمياط من أيدي الصليبيين وقف التجار البنادقة إلى جانب الصليبيين يحاربون دفاعا عنهم.

وبعد أن استرد العرب المسلمون مدينة دمياط وطردوا الصليبيين منها، لم تتخذ الحكومة الأيوبية أي إجراء ضد التجار البنادقة في مصر والشام، رغم الدور الذي قامت به البندقية في الحملة الصليبية الخامسة. في حين اتخذت الجمهورية البندقية إجراءات معنية، نتيجة إخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بدمياط: وقد منعت رعاياها من تصدير الخشب والحديد والقار إلى مصر، وقامت بمراقبة تجارها وسفنهم وفرضت عقوبات قصوى على التجار والسفن إن نقلت مواد أو ما شابهها إلى مصر والشام. ولا شك أن البندقية كانت تدرك أن مثل هذه الإجراءات تلحق بمصالحها التجارية في مصر أبلغ الأضرار وأفدحها، إلا أنها اضطرت إلى ذلك تحت ضغط البابوية والأمراء الصليبيين.

ويبدو أن البندقية رغبت في أن تعوض عما لحق بتجارتها من خسائر نتيجة إخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بدمياط من جهة، والإجراءات التي اتخذتها بحصر المتاجرة مع مصر من جهة أخرى، لهذا نجد مجلس الشيوخ (السناتو) البندقي يأمر بإرسال وفد رسمي



قلعة حلب الأيوبية، ببوابتها الاسلامية تعود لعام ١٢٠٠م

دبلوماسي إلى مدينة حلب وكان عام ١٢٢٥م برئاسة توماس فوسكاريني. ونجح هذا الوفد في توقيع معاهدة تجارية مع الملك العزيز ابن الملك الظاهر غازي، صاحب حلب، اشتملت هذه المعاهدة على منح البنادقة تسهيلات تجارية في المدينة وتخفيض الرسوم الجمركية، بحيث أصبحت ٦٪ بدلا من ١٢٪، كما اشتملت المعاهدة على ضمانات حكومية بشأن سلامة ممتلكات البنادقة في حلب وفي حالة الوفاة والكوارث.

ولم تمض أربع سنوات (١٢٢٩م) حتى وصل وفد رسمي آخر من البندقية إلى حلب، وعقدت معاهدة تجارية أخرى مع الملك العزيز نفسه واشتملت المعاهدة على تجديد الامتيازات التي حصل عليها تجار البنادقة في معاهدة عام ١٢٢٥م. وفي عام ٦٣٦هـ = ١٢٣٨م أرسل دوج البندقية وفداً إلى القاهرة برئاسة (روموس كيورينو ويعقوب باروشيو) ووقع هذا الوفد معاهدة تجارية مع السلطان الأيوبي العادل الثاني. وتعتبر هذه المعاهدة على جانب كبير من الأهمية لأنها كانت أساسا لكل المعاهدات التجارية التي وقعتها جمهورية البندقية مع السلاطين الأيوبيين والمماليك حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي.

ومما يبدو أن العلاقات التجارية بين الأيوبيين والبنادقة، في السنوات الأخيرة من حياة الدولة الأيوبية كانت مزدهرة، والدليل على ذلك عدم اشتراك جمهورية البندقية في حملة الملك الفرنسي، لويس التاسع على مصر والشام، وهي الحملة التي أطلق عليها اسم الحملة الصليبية السابعة من عام ١٢٤٨ ــ ١٢٥٠م فقد كان على لويس التاسع أن يختار لضمان حملته الصليبية على مصر، أن يستعين بالبندقية التي تمتلك بحرية قوية في حوض البحر المتوسط. فأرسل لويس برسول خاص من طرفه إلى جمهورية البندقية وأبدى دوج البندقية استعداده لمساعدة الحملة الفرنسية، غير أن الشروط التي وضعها دوج البندقية كفيلة بأن تظهر عدم استجابتها لرغبة فرنسا. وهي تدل دلالة قاطعة على أن الدوج قد بالغ في الشروط التي وضعها للوفد الفرنسي، مقابل تقديم البندقية مساعدتها للحملة الفرنسية، وذلك ليكون الرفض من جانب فرنسا، لا من جانب البندقية، وليضمن في الوقت ذاته، بقاء علاقاته الودية مع الأيوبيين، وتعزيز صداقاته وامتيازاته التجارية التي يتمتع بها البنادقة في الدولة الأيوبية.

وكانت معارضة البندقية مهاجمة مصر، نظرا للمعاهدات التجارية التي أبرمها الأيوبيون مع البنادقة فضلا عن مصالحهم الاقتصادية الضخمة في مصر والشام.

## الخلاصة

إن عصر الأيوبيين، في مصر والشام كان زاهرا وقد حرص الأيوبيون أشد الحرص على إقامة علاقات ودية وتجارية مع جمهورية البندقية. ويتضح من هذه المعاهدات التجارية، التي وقعها سلاطين الأيوبيين مع حكومات البندقية هي لأمور سياسية بحتة. وفي ظل هذه المعاهدات والعلاقات التجارية بين الطرفين حصل الأيوبيون على تحقيق أهداف رئيسية وطنية من خلال علاقاتهم مع الجمهورية البندقية، منها:

الحصول على السلع والبضائع التي كان العرب والمسلمون في الشرق الأدنى بحاجة ماسة إليها، ومنها الخشب والحديد والأسلحة والدروع، وغيرها من المواد الرئيسية، التي تمكنهم من الاستمرار لخوض المعركة ضد الصليبيين.

**ثانيا ــ** زيادة الواردات المالية للدولة عن طريق تشجيع التجار البنادقة على القدوم إلى الموانىء المصرية والشامية.

**ثالثا ــ** العمل على أخذ الجمهورية البندقية، وكسب صداقتها لأنها كانت في مقدمة القوى البحرية في البحر الأبيض المتوسط، في العصر الأيوبي، لاتخاذها الموقف الحيادي إزاء الصراع العربي الصليبي في الشرق الأدنى.

وقد لعبت الجمهورية البندقية بسياستها بين الأيوبيين والصليبيين لتحقيق مصالحها الاقتصادية في مصر والشام، كما استطاعت أن تعدل ميزان القوى في الشرق الأدنى لمصالحها، خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الذي كان يميل تارة لصالح الصليبيين، وتارة لصالح العرب المسلمين.

وعندما تسلم صلاح الدين الأيوبي السلطنة في مصر والشام، أخذت البندقية موقعها الرسمي مع العرب المسلمين. كما عدلت سياستها مع العرب والمسلمين واستطاعت بهذه السياسة وهذا الموقف أن تكسب صداقة الأيوبيين وأن توطد علاقاتها التجارية والاقتصادية مع الأيوبيين وتمدهم بالمواد الاستراتيجية على الرغم من نداءات البابوية والرأي العام الأوروبي، وذلك كله حرصا على مصالحها التجارية الكبرى في مصر والشام وامتيازاتها التجارية. ●

## مصادر البحث


(١) العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى. دكتور عادل زيتون.
(٢) قوانين الدواوين. أمين معاني.
(٣) خطط المقريزي. جزء أول.
(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. آدم متنز.
(٥) الفاطميون. حسن ابراهيم.
(٦) السلوك لمعرفة الدول والملوك. المقريزي.
(٧) الحملة الصليبية الخامسة. محمود سعيد عمران.
(٨) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. ابن شاهين.
(٩) العدوان الصليبي على بلاد الشام. جوزيف نسيم يوسف.

## الفقيه المغفل



قال الجاحظ: خرجت يوماً أتريض، فلما جاوزت حدود البلد، رأيت رجلا حسن البزة، وضيء الوجه، يجلس على باب كتاب وأمامه صبيان يعلمهم الكتاب، فسلمت عليه فرد سلامي في بشر رغبني فيه، ودعاني الى الجلوس فلبيت، وتحدثنا فرأيت منه اطلاعاً غزيراً في فن القراءات، وتبحراً في تاريخ الحفاظ، فأحببته وأنست إليه، وكنت أختلف الى مجلسه كل يوم فأقضي معه ساعة من الزمن، ثم أعود مشروح النفس من مجلس هذا الصديق الجديد.

وذات يوم ذهبت الى الكتاب كعادتي، فوجدت بابه موصداً، فسألت عن صاحبي، فقيل لي: إن مصابا نزل بساحته، واختطف الموت عزيزاً عليه، فرأيت من الوفاء أن أقوم له بواجب العزاء، وقصدت الى داره فعلمت أنه منطو على نفسه، وأن الحزن قد برح به، فلما لقيته قلت: يا أخي هون عليك فإن كان الذي مات ولداً فالله يجعله لك في الجنة ذخراً، وإن كان أخاً فليعوضك الله عنه وإن كان، وإن كان، وطفقت أعدد له.. فقال: إن الذي فقدت غير هؤلاء جميعاً.. إنها حبيبتي! فقلت في نفسي: هذه أول سقطة.. ثم أجبته: تعز فان الباقيات لمن صبر.. فقال: أوتظن أني رأيتها؟ فقلت: وكيف إذن عشقتها.. قال: كنت أجلس في مكاني هذا، فاذا بي أسمع من هذه الطاقة صوتاً يقول:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردي على فؤادي كيفما كانا

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه غاية في الجمال، ما قال فيها الشاعر هذا القول، فعشقتها. قال الجاحظ: فضحكت في كمي، وقلت لصاحبي: النساء غيرها كثير.. فقال: وهل تظن أني عرفت نبأ موتها؟ قلت: فلماذا تبكيها؟. قال: كنت أجلس في مكاني هذا، فإذا بصاحب الصوت الأول يقول:

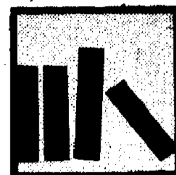
إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو ماتت، ما قال الشاعر فيها هذا القول، فأقمت لها هذا المأتم، وانقطعت عن الكتاب، أبكيها وحيداً حزيناً.

قال الجاحظ: فانصرفت وأنا أعجب من غفلة هذا الفقيه، الذي لم أر في حياتي أقل عقلاً منه، ولا من يماثله، إلا أنا الذي ظللت أختلف إليه أياماً ظناً مني أنه على علم غزير.

## الأسرة المحترمة

□ دخل أبو دلامة الشاعر المعروف على أمير المؤمنين المهدي فأنشده قصيدة، فقال سل حاجتك، فقال: يا أمير المؤمنين هب لي كلباً، فغضب المهدي وقال: قلت لك سل حاجتك تقول هب لي كلباً! فقال أبودلامة: يا أمير المؤمنين الحاجة لي أو لك؟ قال بل لك. قال: اني أسألك أن تهب لي كلب صيد. فأمر له بكلب، فقال: يا أمير المؤمنين هبني خرجت للصيد أأعدو على رجلي؟ فأمر له بدابة. فقال ومن يقوم عليها؟ فأمر له بغلام؛ قال: يا أمير المؤمنين هبني صدت صيداً وأتيت به المنزل فمن يطبخه؟ فأمر له بجارية. قال: فهؤلاء أين يبيتون؟ فأمر له بدار، قال: قد صيرت في عنقي عيالاً فمن أين لي ما يقوت هؤلاء؟ قال المهدي أعطوه جريب نخل. ثم قال: هل بقيت حاجة؟ قال نعم أن تكون راضياً عن الأسرة وأن تأذن لي بأن أقبل يدك. فضحك المهدى ومد اليه يده قائلاً: قد رضيت عنك وعن أسرتك المحترمة!.



# الكتب المهداة إلى مجلة «تاريخ العرب والعالم»

□ **الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية**
اصدارات المكتبة الوطنية ــ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م ........................................ تأليف: رشيد بوريبه
ترجمة: ابراهيم شبّوح

□ **بحث في مفهوم التاريخ ومنهجه**
دار الطليعة للطباعة والنشر ........................ الدكتور طريف الخالدي

□ **مشروع قناة البحرين في ضوء القانون الدولي العام**
منشورات اتحاد الحقوقيين العرب ........................ الدكتور محمد المجذوب

□ **الجذور التاريخية للمسألة الزراعية اللبنانية**
(١٩٠٠ ــ ١٩٥٠)
منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات التاريخية ........ بقلم: د. مسعود ضاهر

□ **السجل الشهري لأحداث العالم**
العدد الثالث ــ مركز التوثيق الاعلامي وزارة الاعلام والثقافة
ــ دولة الامارات العربية المتحدة ........................................

□ **السجل الشهري لأحداث دولة الامارات العربية المتحدة**
العدد السابع والأربعون ــ مركز التوثيق الاعلامي وزارة الاعلام والثقافة ــ دولة الامارات العربية المتحدة ........................................

□ **دراسات قومية ودولية**
مؤسسة ناصر للثقافة ........................ الدكتور محمد المجذوب

□ **وثائق المؤتمر العربي الأول (١٩١٣)**
دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ........................ تقديم ودراسة: د. وجيه كوثراني

□ **قناة البحرين المتوسط والميت ــ المشروع الاسرائيلي وأخطاره**
مؤسسة الدراسات الفلسطينية ........................ اعداد: سمير جبّور
بولا البطل ــ رندة حيدر

□ **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق**
الجزءان الأول والثاني ــ المجلد السابع والخمسون ربيع الأول ــ جمادي الآخرة ١٤٠٢هـ كانون الثاني ــ نيسان ١٩٨٢م ........................................

□ **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق**
الجزء الثالث ــ المجلد السابع والخمسون شوال ١٤٠٢هـ ــ آب ١٩٨٢م ........................................

□ **دليل الصحف والمجلات الصادرة في دول الخليج العربية**
مكتب التربية العربي لدول الخليج الرياض ــ المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م) ........................ اعداد: إدارة الثقافة والوثائق والاعلام المكتبة

